

الباب الثاني شروط التمكين وأسبابه

وفيه فصلان:

الفصل الأول: شروط التمكين.

الفصل الثاني: أسبابه.

الفصل الأول

شروط التمكين

تمهيد

إن الاستخلاف في الأرض، والتمكين لدين الله، وإبدال الخوف أمناً، وعد من الله تعالى متى ما حقق المسلمون شروطه. ولقد أشار القرآن الكريم بكل وضوح إلى شروط التمكين، ولوازم الاستمرار فيه. قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [النور: 55 - 56].

لقد أشارت الآيات الكريمة إلى شروط التمكين وهي: الإيمان بكل معانيه وبكافة أركانه، وممارسة العمل الصالح بكل أنواعه، والحرص على كل أنواع الخير وصنوف البر، وتحقيق العبودية الشاملة، ومحاربة الشرك بكل أشكاله وأنواعه وخفاياه، وأما لوازم استمرار التمكين فهي: إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وطاعة الرسول ﷺ.

المبحث الأول

الإيمان بالله والعمل الصالح

لقد بين الله سبحانه لعباده حقيقة الإيمان الذي يقبل الله به الأعمال ويتحقق به وعد الله للمؤمنين .

فمن شروط الاستخلاف في الأرض : تحقيق الإيمان بكل معانيه والالتزام بشروطه والابتعاد عن نواقضه .

وقد فصل القرآن الكريم والسنة النبوية موضوع الإيمان وأركانه وشروطه ولوازمه .

وقد بين علماء أهل السنة في تعاريفهم بيان حقيقة الإيمان فقالوا: إن الإيمان هو التصديق بالقلب والنطق بالشهادتين والعمل بالجوارح والأركان . أي هو : اعتقاد وقول وعمل . فهذه الثلاثة كلها مندرجة فيه وتمثل أجزاء من حقيقته، وقد تواترت أقوال العلماء السابقين ومن بعدهم على هذه الحقيقة، واستدلوا بأدلة كثيرة من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية على صحة هذا القول في حقيقة الإيمان⁽¹⁾ .

قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ... ﴾ [الأنفال : 2 - 4] .

فقد جمعت هذه الآيات - وهي تعرض صفات المؤمنين - بين عمل القلب، وعمل الجوارح، واعتبرت هذا كله إيماناً، وقصرت الإيمان عليه بأداة القصر والحصر ﴿ إِنَّمَا ﴾ وعرفت المؤمنين بتلك الصفات مجتمعة، عندما ضمنتها بعبارة ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ وأعمال الجوارح في هذه الصفات هي : إقامة الصلاة والإنفاق في سبيل الله .

(1) انظر : في ظلال الإيمان للخالدي، ص 23 .

ومنها قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [السجدة: 15]، . فسجود المؤمنين: عندما يذكرون بآيات الله، عبادة عملية بدنية، وتسيبهم بحمد ربهم عبادة عملية لسانية، رعدم استكبارهم عبادة عملية سلوكية أخلاقية قلبية، وهذه كلها أعمال مندرجة في حقيقة الإيمان.

ومنها قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: 277]. فمن حقيقة الإيمان في الآية: عمل الصالحات على عمومها، وخصت اثنتين منها بالذكر وهما: الصلاة والزكاة، واعتبرت أداءهما عملياً من الإيمان.

إن آيات القرآن التي قرنت بين الإيمان وعمل الصالحات واعتبرت الأمرين من حقيقة الإيمان ومن صفات المؤمنين كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿ إِلَّا مَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظَلَّمُونَ شَيْئًا ﴾ [مريم: 60]

قوله تعالى: ﴿ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الَّذِي كَفَرُوا بِهِمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ ﴾ [سبا: 37]

وكقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ [الكهف: 30].

هذا وقد أطلق القرآن لفظ: (الإيمان) على العمل في بعض الآيات ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ ۗ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَىٰ اللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة: 143]. والإيمان هنا يراد به الصلاة، وقد ذهب جمهور المفسرين إلى هذا، بل إن الصحابة فهموا هذا، وتضافرت الروايات عنهم في سبب نزول الآية:

روى إمام المفسرين ابن جرير الطبري بسنده عن قتادة قال: «كانت القبلة فيها بلاء وتمحيص. صلت الأنصار نحو بيت المقدس حولين قبل قدوم نبي الله ﷺ. وصلّى نبي الله ﷺ بعد قدومه المدينة مهاجراً نحو بيت المقدس سبعة عشر شهراً... ثم وجهه الله بعد ذلك إلى الكعبة - البيت الحرام - فقال في ذلك قائلون من الناس: ما ولأهم عن قبلتهم التي كانوا عليها؟ لقد اشتاق الرجل إلى مولده: قال الله ﷻ: ﴿ قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [البقرة: 142]، . فقال أناس - لما صرفت القبلة نحو

البيت الحرام: كيف بأعمالنا التي كنا نعمل في قبلتنا الأولى؟ فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ﴾ ثم أورد الإمام الطبري إحدى عشرة رواية عن الصحابة والتابعين في أن المراد بالإيمان في الآية الصلاة، وأنها نزلت جواباً على تساؤل لبعض الصحابة عن مصير الصلاة التي صلُّوها إلى بيت المقدس، وتساءل آخرون منهم عن مصير صلاة إخوانهم إلى بيت المقدس الذين ماتوا قبل تحويل القبلة إلى الكعبة⁽¹⁾.

فمعنى قوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ﴾ على ما تضافرت به الرواية من أنه الصلاة «وما كان الله ليضيع تصديق رسول الله ﷺ بصلاتكم التي صليتموها نحو بيت المقدس عن أمره، لأن ذلك كان منكم تصديقاً لرسولي، واتباعاً لأمري، وطاعة منكم لي»⁽²⁾.

وقد التفت الإمام الطبري إلى الربط بين الإيمان والصلاة، ولاحظ وجود التصديق في ممارسة الصلاة والتوجه فيها إلى بيت المقدس ثم إلى الكعبة المشرفة. وهذه اللفتة من الطبري لطيفة، وهذا الربط منه رائع، يشير إلى موهبته الفذة في التفسير واللغة وغيرها⁽³⁾.

ومن الآيات التي أطلقت كلمة الإيمان على الأعمال قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ [يونس: 9].

ذهبت طائفة من المفسرين إلى أن المراد بالإيمان هنا الأعمال التي كانوا يعملونها في الدنيا... وقد أورد الإمام الطبري أقوال طائفة من التابعين في هذا المعنى، منها قول ابن جريج: «وقال ابن جريج: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ قال: يمثل له عمله في صورة حسنة وريح طيبة، يعارض صاحبه ويبشره بكل خير، فيقول له: من أنت؟ فيقول: أنا عمك! فيجعل له نوراً من بين يديه حتى يدخله الجنة، فذلك قوله: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ والكافر يمثل له عمله في صورة سيئة وريح منتنة، فيلازم صاحبه حتى يقذفه في النار»⁽⁴⁾، وهناك آيات أخرى أطلقت على الإيمان عبارات أخرى تشير إلى العمل وتضمنه، أورد الإمام البخاري في صحيحه بعضها:

منها قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْشَرُونَ بِكَ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾ [الفرقان: 77]

(1) انظر: تفسير الطبري (3/ 167 - 169).

(2) المصدر نفسه (3/ 169).

(3) في ظلال الإيمان، ص 26.

(4) تفسير الطبري (15/ 28).

قال البخاري: «دعاؤكم: إيمانكم... ومعنى الدعاء في اللغة: الإيمان».

وجعل ابن عباس رضي الله عنه الدعاء بمعنى الإيمان، قال: «لولا دعاؤكم: إيمانكم»⁽¹⁾.

ومن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَأَبَانَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُؤْتُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: 177]، فالآية اعتبرت هذه الخصال تصديقاً وإيماناً، وجعلت أعمال البر هذه من الإيمان. ووجه الدلالة من الآية ما فسره رسول الله ﷺ حيث روى عبدالرزاق⁽²⁾ وغيره عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه أنه سأل رسول الله ﷺ عن الإيمان فتلا عليه هذه الآية ﴿لَيْسَ الْبِرَّ﴾ إلى آخرها... والحديث رجاله ثقات⁽³⁾.

ومن فقه الإمام البخاري وفطنته - وهو البصير في الحديث والتفسير - أنه جعل هذه الآية وما فيها من خصال البر من أمور الإيمان، وضمن باباً أسماه «باب أمور الإيمان» وقرنها مع الآيات الأولى من سورة «المؤمنون» التي تتحدث عن صفات المؤمنين، ومع الحديث الذي يقرر أن الإيمان بضع وستون شعبة⁽⁴⁾.

ومن هذه الآيات: ثلاث آيات أوردها الإمام البخاري في صحيحه ضمن باب «من قال إن الإيمان هو العمل» وهي قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الزخرف: 72] قال ابن حجر في الفتح: «وقد نقل جماعة من المفسرين إن قوله هنا تعملون معناه: تؤمنون»⁽⁵⁾ والثانية قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الحجر: 92 - 93]

قال البخاري: «عن لا إله إلا الله»، قال ابن حجر في الشرح: «يدخل فيها المسلم والكافر. فإن الكافر مخاطب بالتوحيد بلا خلاف، بخلاف باقي الأعمال ففيها الخلاف...»

- (1) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب: دعاؤكم إيمانكم (9/1).
- (2) هو الإمام العلامة الحافظ عبدالرزاق بن همام الصنعائي، صاحب المصنف، رحل الأئمة إليه من اليمن وله أوهاام مغمورة في سعة علمه، توفي 211 هـ، العبر (1/283).
- (3) فتح الباري، كتاب الإيمان، باب أمور الإيمان (1/74).
- (4) المصدر السابق نفسه.
- (5) فتح الباري، كتاب الإيمان، باب من قال إن الإيمان هو العمل (1/109).

فالسؤال عن التوحيد متفق عليه فهذا هو دليل التخصيص، وحمل الآية عليه أولى، بخلاف الحمل على جميع الأعمال لما فيه من الاختلاف⁽¹⁾.

من هذه الآيات التي أوردناها يتبين لنا: إن الإيمان في القرآن شامل للاعتقاد وللنطق وللعمل، ولا بد من القول بهذا اتباعاً للقرآن الكريم، الذي يجب أن تؤخذ منه الأقوال والآراء، وأن يعتمد عليه في الاستدلال والاستنباط، وأن يدخله المتأمل والباحث دون مقررات مسبقة... فما قرره القرآن قبل، ومعارضه أخذ به، وما قال به لزم المؤمنين القول به... وإليك أخي القارئ طائفة من أحاديث رسول الله ﷺ التي اعتبرت الإيمان شاملاً للقول والعمل والاعتقاد:

روى الإمام البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «الإيمان بضع وستون شعبة... والحياء شعبة من الإيمان»⁽²⁾.

وفي رواية للإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «الإيمان بضع وسبعون شعبة، أفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إمطة الأذى عن الطريق... والحياء شعبة من الإيمان...»⁽³⁾ والشاهد في الحديث ما ذكره رسول الله ﷺ فالشهادة قول وإمطة الأذى عن الطريق عمل، والحياء خلق وسلوك، وجعل الثلاثة من الإيمان دليل على حقيقته، ومعظم شعب الإيمان هي أعمال⁽⁴⁾.

وروى البخاري عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»⁽⁵⁾.

وروى البخاري عن أبي هريرة وأنس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين»⁽⁶⁾.

وروى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه: إن رسول الله ﷺ سئل أي العمل أفضل؟ قال: «إيمان بالله ورسوله»، قيل: ثم ماذا؟ قال: «الجهاد في سبيل الله»، قيل: ثم ماذا؟ قال: «حج مبرور»⁽⁷⁾.

(1) المصدر نفسه (1/ 110).

(2) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب أمور الإيمان (1/ 10) رقم 9.

(3) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان (1/ 63) رقم 57.

(4) في ظلال الإيمان، ص 30.

(5) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب من الإيمان أن يحب لأخيه: (11/1) رقم 13.

(6) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب حب الرسول ﷺ من الإيمان (1/ 11) رقم 14.

(7) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب (فإن تابوا وأقاموا الصلاة) (1/ 14) رقم 26.

وروى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أمر وفد عبد قيس عندما قدموا عليه بالإيمان بالله وحده. قال: «هل تدرّون ما الإيمان؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وأن تؤدوا خمساً من المغنم»⁽¹⁾.

هذه الأحاديث، وغيرها من الأحاديث، تجعل الإيمان شاملاً للاعتقاد والعمل، وأما أقوال السلف فقد تواترت في بيان حقيقة الإيمان.

قال شارح الطحاوية: «ذهب مالك والشافعي وأحمد والأوزاعي⁽²⁾ وإسحاق ابن راهويه⁽³⁾ وسائر أهل الحديث وأهل المدينة رحمهم الله وأهل الظاهر وجماعة من المتكلمين: إلى أنه تصديق بالجنان، وإقرار باللسان، وعمل بالأركان»⁽⁴⁾.

وقال الإمام سهل بن عبدالله التستري⁽⁵⁾: «الإيمان قول وعمل ونية وستة... لأن الإيمان إذا كان قولاً بلا عمل فهو كفر. وإذا كان قولاً وعملاً بلا نية فهو نفاق. وإذا كان قولاً وعملاً ونية بلا سنة فهو بدعة»⁽⁶⁾.

وقال الإمام عبدالرزاق: سمعت من أدركت من شيوخنا وأصحابنا سفيان الثوري⁽⁷⁾ ومالك ابن أنس وعبيد الله بن عمر والأوزاعي، ومعمر بن راشد⁽⁸⁾ وسفيان ابن عيينة⁽⁹⁾ يقولون: الإيمان قول وعمل يزيد وينقص.

-
- (1) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب أداء الخمس من الإيمان (1/ 23) رقم 53.
 - (2) هو الإمام العابد الحجة الثقة عبد الرحمن بن عمر الأوزاعي الفقيه، روى عن خلق كثير من التابعين، وكان رأساً في العلم والعمل والاتباع، بارعاً في الكتابة، كان يكثر من الصلاة والعبادة وقيام الليل، توفي في بيروت عام 158 هـ. تهذيب التهذيب (6/ 238)، شذرات الذهب (1/ 341).
 - (3) هو إمام المشرق إسحاق بن إبراهيم المروزي ثم النيسابوري الحافظ ابن راهويه عالم خراسان والعراق في عصره، توفي سنة 238 هـ. حلية الأولياء (9/ 234).
 - (4) انظر: الطحاوية، ص 373.
 - (5) من الزهاد الكبار والعباد المشهورين، اشتهر بالتصوف السني وبالحكم الجميلة.
 - (6) الإيمان لابن تيمية: ص 163.
 - (7) هو سفيان بن مسروق شيخ الإسلام من أهل الحديث توفي 161 هـ. سير أعلام النبلاء (7/ 229).
 - (8) هو معمر ابن راشد أبو عمر البصري من تلاميذ عبد الرزاق الصنعاني، ت 153 هـ. ميزان الاعتدال (4/ 154).
 - (9) هو أبو محمد بن عيينة بن أبي عمران الهلالي، توفي 198 هـ. تهذيب التهذيب (4/ 117).

وهذا قول ابن مسعود وحذيفة⁽¹⁾ والنخعي⁽²⁾ والحسن البصري⁽³⁾ وعطاء⁽⁴⁾ وطاووس⁽⁵⁾ ومجاهد وعبد الله بن المبارك⁽⁶⁾. . . فالمعنى الذي يستحق به العبد المدح والولاية من المؤمنين هو إتيانه بهذه الأمور الثلاثة: التصديق بالقلب والإقرار باللسان والعمل بالجوارح⁽⁷⁾.

فهؤلاء مصابيح الهدى وأئمة الدين وعلماء الأمة من أهل الحجاز والعراق والشام وخراسان يرون أن الإيمان قول باللسان، وعمل بالأركان، واعتقاد بالجنان.

وقال الإمام البخاري في كتاب الإيمان في صحيحه: «هو قول وفعل يزيد وينقص والحب في الله والبغض في الله من الإيمان. وقال عمر بن عبد العزيز: إن للإيمان فرائض وشرائع، وحدوداً، وسنناً، فمن استكملها استكمل الإيمان، ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان، فإن أعش فسأبينها لكم حتى تعملوا بها، وإن أمت فما أنا على صحبتكم بحريص»⁽⁸⁾.

وبهذا يتبين لنا أن مفهوم الإيمان وحقيقته في القرآن والسنة وفي مفهوم السلف: تصديق بالجنان، وإقرار باللسان، وعمل بالأركان. قال سيد - رَحِمَهُ اللهُ - في ظلاله: «إن حقيقة الإيمان التي يتحقق بها وعد الله حقيقة ضخمة تستغرق النشاط الإنساني كله، وتوجه النشاط الإنساني كله، فما تكاد تستقر في القلب حتى تعلن عن نفسها في صورة عمل ونشاط، وبناء، وإنشاء موجه كله إلى الله، لا يبتغي به صاحبه إلا وجه الله، وهي طاعة لله واستسلام لأمره في الصغيرة والكبيرة، لا يبقى معها هوى في النفس، ولا شهوة في القلب، ولا ميل في الفطرة إلا وهو تبع لما جاء به رسول الله ﷺ من عند الله.

فهو الإيمان الذي يستغرق الإنسان كله، بخواطر نفسه، وخلجات قلبه، وأشواق روحه، وميول فطرته، وحركات جسمه، ولفترات جوارحه وسلوكه مع ربه وفي أهله، ومع الناس جميعاً... يتمثل هذا في قول الله سبحانه في الآية نفسها تعليلاً للاستخلاف والتمكين والأمن»⁽⁹⁾.

(1) حذيفة بن اليمان صحابي جليل، صاحب سر رسول الله ﷺ.

(2) هو إبراهيم بن يزيد النخعي توفي 96 هـ. تهذيب التهذيب (1/ 177).

(3) من سادات التابعين اشتهر بالعلم والعبادة والزهد، توفي 110 هـ بالبصرة.

(4) هو عطاء بن أبي رباح، فقيه أهل الحجاز، أفضل أهل زمانه، توفي 114 هـ. العبر (1/ 108).

(5) طاووس بن كيسان اليماني أبو عبد الرحمن، أحد الأعلام علماً وأدباً (ت 106 هـ). العبر (1/ 99).

(6) كان من المجاهدين العاملين، جمعت فيه خصال الخير، توفي 181 هـ. وفيات الأعيان (3/ 32).

(7) انظر: مسلم مع شرح النووي كتاب الإيمان (1: 146، 147).

(8) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب قول النبي: بني الإسلام على خمس (1/ 9).

(9) في ظلال القرآن (4/ 2528).

لقد تقرر أن الإيمان عند علماء السلف: قول باللسان واعتقاد بالجنان وفعل بالأركان كما أسلفنا .

والقول باللسان هو النطق بشهادة الحق وهي كلمة التوحيد «لا إله إلا الله محمد رسول الله» .

ومعناها: لامعبود بحق إلا الله، وبذلك تنفي الإلهية عما سوى الله وتشبهها لله وحده⁽¹⁾ .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية - رَحِمَهُ اللهُ -: «ليس للقلوب سرور ولا لذة تامة إلا في محبة الله، والتقرب إليه بما يحبه، ولا تمكن محبته إلا بالإعراض عن كل محبوب سواه، وهذا حقيقة «لا إله إلا الله» وهي ملة إبراهيم الخليل رَحِمَهُ اللهُ وسائر الأنبياء والمرسلين صلاة الله وسلامه عليهم أجمعين»⁽²⁾ أما شقها الثاني «محمد رسول الله» فمعناه تجريد متابعتة رَحِمَهُ اللهُ فيما أمر والانتفاء عما نهى عنه وزجر .

ومن هنا كانت «لا إله إلا الله» ولاء وبراء نفياً وإثباتاً .

ولاء الله ولدينه وكتابه وستة نبيه وعباده الصالحين، وبراء من كل طاغوت ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ [البقرة: 256]. وبهذه الآية يتضح أن الإنسان لا يكون مؤمناً إلا بالكفر بالطاغوت .

وكلمة التوحيد ولاء لشرع الله: قال تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: 3]

وقال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: 30].

وبراء من حكم الجاهلية: قال تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: 50].

وبراء من كل دين غير دين الإسلام: قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: 85].

ثم هي نفي وإثبات تنفي أربعة أمور⁽³⁾ وثبتت أربعة أمور .

(1) انظر: فتح المجيد، ص 36.

(2) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (32/ 28).

(3) انظر: الولاء والبراء في الإسلام لمحمد سعيد القحطاني، ص 25.

تنفي الآلهة، والطواغيت، والأنداد، والأرباب.

فالآلهة: ما قصدته بشيء من جلب خير أو دفع ضرر، فأنت متخذة إلهاً.

والطواغيت: من عبد وهو راضٍ، أو رُشِح للعبادة.

والأنداد: ما جذبك عن دين الإسلام، من أهل، أو مسكن، أو عشيرة، أو مال فهو ند

لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ...﴾

[البقرة: 165].

والأرباب: من أفتاك بمخالفة الحق وأطعته مصداقاً لقوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ

وَرُهْبَنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: 31]،

وتثبت أربعة أمور:

1 - القصد: وهو كونك ما تقصد إلا الله.

2 - والتعظيم والمحبة: لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: 165].

3 - والخوف والرجاء لقوله تعالى: ﴿وَإِن يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ

وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِّنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾

[يونس: 107]

ولقد جاء القرآن من أوله إلى آخره يبين معنى لا إله إلا الله ينفي الشرك وتوابعه ويقرر الإخلاص وشرائعه، فكل قول وعمل صالح يحبه الله ويرضاه هو من مدلولات كلمة الإخلاص؛ لأن دلالتها على الذين كله إما مطابقة⁽¹⁾ وإما تضميناً⁽²⁾ وإما التزاماً⁽³⁾، يقرر ذلك أن الله سماها كلمة التقوى.

4 - والتقوى: أن يتقي سخط الله وعقابه بترك الشرك والمعاصي، وإخلاص العبادة لله، واتباع أمره على ما شرعه. كما قال ابن مسعود رضي الله عنه: «أن تعمل بطاعة الله، على نور من الله، ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله، على نور من الله، تخاف عقاب الله»⁽⁴⁾.

لقد تم لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم معرفة هذه الكلمة والتزام أحكامها والعمل بمقتضاها ولوازمها.

(1) دلالة المطابقة: هي دلالة اللفظ على معناه.

(2) دلالة التضمين: هي دلالة اللفظ على جزء من معناه.

(3) دلالة الالتزام: هي دلالة اللفظ على معنى خارج عنه لكنه لازم له.

(4) انظر: المورد العذب الزلال مجموعة الرسائل النجدية (4/ 99).

قال سفيان بن عيينة: «عندما سأله رجل عن الإيمان؟ فقال: قول وعمل، قال: يزيد وينقص؟ قال: يزيد ماشاء الله، وينقص حتى لا يبقى منه مثل هذه، وأشار سفيان بيده. قال الرجل: كيف نضع بقوم عندنا يزعمون أن الإيمان قول لا عمل؟ قال سفيان: كان القول قولهم قبل أن تقرر أحكام الإيمان وحدوده، إن الله ﷻ بعث نبينا محمداً ﷺ إلى الناس كلهم كافة أن يقولوا: لا إله إلا الله، وأنه رسول الله. فلما قالوها عصموا بها دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله ﷻ، فلما علم الله ﷻ صدق ذلك من قلوبهم، أمره أن يأمرهم بالصلاة، فأمرهم ففعلوا، فوالله لو لم يفعلوا مانعهم الإقرار الأول ولا صلاتهم، فلما علم الله جلّ وعلا صدق ذلك من قلوبهم، أمره أن يأمرهم بالهجرة إلى المدينة، فأمرهم ففعلوا، فوالله لو لم يفعلوا ما نفعهم الإقرار الأول ولا صلاتهم، فلما علم الله تبارك وتعالى صدق ذلك من قلوبهم، أمرهم بالرجوع إلى مكة ليقاتلوا آباءهم وأبنائهم، حتى يقولوا كقولهم، ويصلّوا صلاتهم، ويهاجروا هجرتهم، فأمرهم ففعلوا، فوالله لو لم يفعلوا ما نفعهم الإقرار الأول ولا صلاتهم ولا هجرتهم، ولا قتلهم، فلما علم الله ﷻ صدق ذلك من قلوبهم أمره أن يأمرهم بالطواف بالبيت تعبدًا، وأن يحلقوا رؤوسهم تذللاً ففعلوا، فوالله لو لم يفعلوا مانعهم الإقرار الأول، ولا صلاتهم، ولا هجرتهم، ولا قتلهم آباءهم، فلما علم الله ﷻ صدق ذلك من قلوبهم أمره أن يأخذ من أموالهم صدقة يطهرهم بها، فأمرهم ففعلوا حتى أتوا بها قليلها وكثيرها، والله لو لم يفعلوا مانعهم الإقرار الأول ولا صلاتهم، ولا هجرتهم، ولا قتلهم آباءهم ولا طوافهم. فلما علم الله تبارك وتعالى الصدق من قلوبهم فيما تتابع عليهم من شرائع الإيمان وحدوده قال ﷻ: قل لهم: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾

[المائدة: 3].

قال سفيان الثوري: فمن ترك خلة من خلال الإيمان كان بها عندنا كافراً ومن تركها كسلاً أو تهاوناً بها، أدبناه وكان بها عندنا ناقصاً. هكذا السنة أبلغها عني من سألك من الناس⁽¹⁾.

وقد ذكر العلماء رحمهم الله شروطاً سبعة لـ «لا إله إلا الله» لاتنفع صاحبها إلا باجتماع هذه الشروط. وإليك شرحها:

(1) كتاب الشريعة لأبي بكر محمد بن الحسين الأجرى، ص 104.

شروط كلمة التوحيد:

لابد أن تعلم أنه: «ليس المراد من هذا عدّ ألفاظها وحفظها، فكم من عامي اجتمعت فيه والتزمها، ولو قيل له عدّها لم يحسن ذلك، وكم حافظ لألفاظها يجري فيها كالسهم، وتراه يقع كثيراً فيما يناقضها والتوفيق بيد الله، والله المستعان»⁽¹⁾.

وقد قال وهب بن منبه⁽²⁾ - لمن سأله:

«ليس (لا إله إلا الله) مفتاح الجنة؟ - قال: بلى. ولكن ما من مفتاح إلا وله أسنان، فإن جئت بمفتاح له أسنان فتح لك، وإلا لم يفتح لك»⁽³⁾.

وأسنان هذا المفتاح هي شروط «لا إله إلا الله» الآتية:

الشرط الأول: العلم بمعناها المراد منها نفيًا وإثباتًا، المنافي للجهل بذلك، قال تعالى:

﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمد: 19].

وقال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: 86]، أي بـ «لا إله إلا الله»: «وهم يعلمون» بقلوبهم ما نطقوا به بألسنتهم.

وقال تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: 18].

وفي الصحيح عن عثمان رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة»⁽⁴⁾.

الشرط الثاني: اليقين المنافي للشك. ومعنى ذلك: أن يكون قائلها مستيقناً بمدلولات هذه الكلمة، يقيناً جازماً، فإن الإيمان لا يغني فيه إلا علم اليقين لا علم الظن⁽⁵⁾. قال تعالى:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات: 15] وفي الصحيح من حديث أبي

(1) معارج القبول للشيخ الحافظ الحكمي (2/418).

(2) وهب بن منبه بن كامل اليماني الصنعاني روى عن أبي هريرة وأبي سعيد وابن عباس وابن عمر رضي الله عنهم، توفي 110 هـ. انظر: تهذيب التهذيب (11/167).

(3) رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب من كان آخر كلامه لا إله إلا الله (3/109).

(4) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً (1/55) رقم 34.

(5) معارج القبول (2/419).

هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيهما إلا دخل الجنة»⁽¹⁾.

الشرط الثالث: القبول لما اقتضته هذه الكلمة بقلبه ولسانه، وقد قضى الله ﷻ علينا من أبناء ماقد سبق من إنجاء من قبلها، وانتقامه ممن ردّها وأباها.

قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرِيْبٍ مِّنْ نَّذِيْرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ ءَاثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ أُولُوْ حِجْتِكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ ءَابَاءُكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَنْظَرْنَا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِيْنَ ﴿٢٥﴾﴾ [الزخرف: 23 - 25].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِيْنَ﴾ [الروم: 47].

وفي الحديث الصحيح عن أبي موسى رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به»⁽²⁾.

الشرط الرابع: الانقياد لما دلت عليه، المنافي لترك ذلك.

قال تعالى: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُمْ﴾ [الزمر: 54].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء: 125].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ [لقمان: 22].

وقال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِيْ أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: 65].

(1) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً (1/ 56، 57) رقم 27.

(2) رواه البخاري، كتاب العلم، باب فضل من علّم وعلم (1/ 32) رقم 79.

قال ابن كثير في تفسيرها: «يقسم الله تعالى بنفسه الكريمة المقدسة أنه لا يؤمن أحد حتى يحكم الرسول ﷺ في جميع الأمور، فما حكم به فهو الحق الذي يجب الانقياد له باطناً ظاهراً» ولهذا قال: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ أي: إذا حكموك يطيعونك في بواطنهم فلا يجدون في أنفسهم حرجاً مما حكمت به، وينقادون له في الظاهر والباطن فيسلمون لذلك تسليماً كلياً من غير ممانعة ولا مدافعة، ولا منازعة، كما ورد في الحديث: «والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به»⁽¹⁾⁽²⁾.

الشرط الخامس: الصدق المنافي للكذب، وهو أن يقولها صدقاً من قلبه، يواطئ قلبه لسانه، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ (٢) «وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ (٣) [العنكبوت: 1 - 3]، وقال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتُونَ الْآخِرَ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (٤) «يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ (٥) «فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ يُمَّا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ (٦) [البقرة: 8 - 10].

وفي الصحيحين عن معاذ بن جبل رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: «ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله صدقاً من قلبه إلا حرمه الله على النار»⁽³⁾.

قال العلامة ابن القيم:

«والتصديق بلا إله إلا الله يقتضي الإذعان والإقرار بحقوقها وهي شرائع الإسلام التي هي تفصيل هذه الكلمة، بالتصديق بجميع أخباره وامتهال أوامره واجتناب نواهيه... فالمصدق بها على الحقيقة هو الذي يأتي بذلك كله، ومعلوم أن عصمة المال والدم على الإطلاق لم تحصل إلا بها وبالقيام بحقها، وكذلك النجاة من العذاب على الإطلاق لم تحصل إلا بها وبحقها»⁽⁴⁾.

(1) الحديث مروى في الأربعين النووية ص 134، قال فيه النووي: (وهو حديث حسن صحيح روينا في كتاب الحجّة بإسناد صحيح).

(2) تفسير ابن كثير (1/ 533).

(3) رواه البخاري، كتاب العلم، باب من خص بالعلم قوماً (1/ 47) رقم 128.

(4) التبيان في أقسام القرآن لابن القيم، ص 43.

وقال ابن رجب:

أما من قال: لا إله إلا الله بلسانه، ثم أطاع الشيطان وهواه في معصية الله ومخالفته فقد كذب فعله قوله، ونقص من كمال توحيد به بقدر معصية الله في طاعة الشيطان والهوى قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص: 26]⁽¹⁾.

الشرط السادس: الإخلاص، وهو تصفية بصلاح النية عن جميع شوائب الشرك⁽²⁾.

قال تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الخَالِصُ﴾ [الزمر: 3].

وقال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة: 5].

وفي الصحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «أسعد الناس بشفاعتي من قال: لا إله إلا الله خالصاً من قلبه»، «أو نفسه»⁽³⁾.

وقال الفضيل بن عياض⁽⁴⁾ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل، حتى يكون خالصاً صواباً. والخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة»⁽⁵⁾.

الشرط السابع: المحبة لهذه الكلمة، ولما اقتضته ودلت عليه، ولأهلها العاملين بها الملتزمين لشروطها، وبغض ما ناقض ذلك، قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: 165].

وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ رِبِّدِّكُمْ عَنْ دِينِهِمْ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ [المائدة: 54].

وفي الحديث الصحيح: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار»⁽⁶⁾.

(1) كلمة الإخلاص لابن رجب، ص 28.

(2) معارج القبول (2/ 423).

(3) صحيح البخاري، كتاب العلم، باب الحرص على الحديث (3/ 38) رقم 99.

(4) هو أبو علي الفضيل بن عياض بن مسعود الطالقاني الأصل، الزاهد العابد الثقة الإمام المشهور، كان أول أمره قاطع طرق، ثم تسك وسمع الحديث بالكوفة، مات سنة 187 هـ. حلية الأولياء (8/ 84)، سير أعلام النبلاء (8/ 421).

(5) مجموع الفتاوى (3/ 421).

(6) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان (1/ 11) رقم 16.

وقال الشيخ حافظ الحكمي⁽¹⁾ - رَحِمَهُ اللهُ -: «وعلاوة حب العبد ربه: تقديم محابته وإن خالفت هواه، وبغض ما يبغض ربه وإن مال إليه هواه، وموالاته من وإلى الله ورسوله، ومعاداة من عاداه، واتباع رسوله ﷺ، واقتفاء أثره، وقبول هدايته»⁽²⁾.

ويقول ابن القيم في «النونية»:

شرط المحبة أن توافق من تحب	على محبته بلا عصيان
فإذا ادعيت له المحبة مع خلا	فك ما يحب فأنت ذو بهتان
أتحب أعداء الحبيب وتدعي	حبا له ماذا في إمكان
وكذا تعادى جاهداً أحبابه	أين المحبة يا أبا الشيطان
ليس العبادة غير توحيد المحبة	مع خضوع القلب والأركان ⁽³⁾ .

وبعد أن بينت حقيقة الإيمان وشروطه التي يتحقق بها التمكين لدين الله، والنصرة على الأعداء يتضح لنا أن الفرد بغير الإيمان الحقيقي بالله، ريشة في مهب الريح، لا تستقر على حال، ولا تسكن إلى قرار، والإنسان بغير الدين الإسلامي يتحول إلى حيوان شره، أو وحش مفترس، لا تستطيع الثقافة الوضعية ولا القانون الجاهلي أن يحدا من شرايته أو يمنعه من الافتراس.

والمجتمع بغير دين صحيح، وإيمان قوي، مجتمع متوحش مظلم شقي، وإن لمعت فيه بوارق الحضارة المهترئة وامتلأ بأدوات الرفاهية وأسباب النعيم الحسي، فهو مجتمع البقاء فيه للأقوى، لا للأفضل والأتقى، مجتمع تقرأ التعاسة والشقاء في وجوه أصحابه، وإن زينوا وجوههم بأنواع الأصباغ والمحسنات، وركبوا الطائرات، وسكنوا العمارات واغتصبوا أعظم الثروات، فهو مجتمع تافه رخيص هزيل؛ لأن غايات أهله غايات ساذجة، سطحية هزيلة لا تتجاوز شهوات البطون والفروج، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَنَّوْنَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْآلِئَةُ وَالنَّارُ مَثْوَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد: 12].

بخلاف مجتمع الإيمان والإسلام المبني على الحب في الله والرضا بكل ما صدر عن

(1) هو الشيخ العلامة حافظ بن أحمد الحكمي، عالم سلفي من منطقة تهامة ولد سنة 1342 هـ بقرية السلام بالقرب من جيزان، كان آية في الذكاء وسرعة الحفظ والفهم، تتلمذ على يد الشيخ الداعية عبد الله القرعاوي، توفي سنة 1377 هـ وعمره 35، انظر ترجمته في مقدمة معارج القبول بقلم ابنه.

(2) معارج القبول، (2/ 424).

(3) النونية، ص 158.

الله ﷻ واهب الحياة ومنشئ الخلق، وصاحب الأمر والنهي المطلق في الوجود كله، وهذا أمر طبيعي، في أن يحب الإنسان ربه، وخالقه ورازقه؛ لأن النفوس مجبولة على حب من أحسن إليها، وأي إحسان كإحسان من خلق فقدر وشرع فيسر، وجعل الإنسان في أحسن تقويم، ووعد من أطاعه بجنة الخلد التي فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر؛ لهذا كله ولأكثر منه، أحب المؤمنون ربهم حباً لا يقاس بغيره مما هو دونه، فقدموا أنفسهم وأهليهم وأموالهم في سبيل الله، بلا تردد أو منة، بل اعتبروا ذلك تفضل من الله عليهم، أن فتح لهم باب الجهاد والاستشهاد في سبيله ويسر لهم أسبابه، فقاموا بذلك الواجب خير قيام⁽¹⁾.

إن الإيمان الحقيقي بالله، هو الذي ينبعث منه الحب في الله الذي يحرك إرادة القلب، ويوجهها إلى المحبوبات وترك المحظورات، وكلما ازداد الإيمان بالله في نفس المؤمن كلما ازدادت المحبة في الله لديه قوة وصلابة، وتحول المر حلواً، والكدر صفاء، والألم شفاء، والنصرة جهاداً، والابتلاء رحمة، والإحجام عن نصرة أهل الحق خيانة، وتراجعاً عن الإسلام.

فالحب في الله أخص من الرضا وأعمق أثراً حيث إنه الضمان الوحيد لترابط المجتمع واحترام حقوقه⁽²⁾ ولذلك ورد في الحديث الشريف: «لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أو لا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم»⁽³⁾.

فحقيقة المحبة في الله لاتتم إلا بموافقة الباري جل وعلا في حب ما يحب، وبغض ما يبغض⁽⁴⁾.

ولذلك فأكمل الخلق وأفضلهم وأعلاهم إيماناً من كان أقربهم إلى الله في محبته، وأقواهم في طاعته، وأتمهم عبودية له⁽⁵⁾.

وهذه الصفات تستلزم محبة الرسول ﷺ ومحبة ما جاء به من عند الله، ومحبة المؤمنين بهذا الدين، وإيثارهم على النفس بالمال والنصرة والتأييد والانضمام في حزبهم حيث إنهم حزب الله ومن انضم إلى حزب الله فقد أفلح في دنياه وأخراه.

(1) انظر: كتاب الإيمان وأثره في الحياة، للدكتور القرضاوي، ص 5 - 12.

(2) انظر: الموالاتة والمعاداة للجلعود (1/ 245).

(3) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب لا يدخل الجنة إلا المؤمنون (1/ 74) رقم 93.

(4) انظر: مجموعة التوحيد، ص 422، 423.

(5) المصدر نفسه، ص 422، 423.

إن الإيمان بالله، والحب في الله، وما يترتب عليهما قواعد متلازمة ينبني بعضها على البعض الآخر، ويتأثر اللاحق منها بالسابق، فإذا قوي الإيمان بالله في نفس المؤمن ازداد الحب في الله، وازدادت الأفعال المترتبة على ذلك، حتى تصبح الجماعة المسلمة، كخلايا الدم في الجسم تعمل لغرض واحد، وهدف واحد، وفي إطار واحد، عند ذلك تصبح الجماعة المسلمة بنية حية قوية صامدة قادرة على أداء رسالتها ودورها العظيم في حق نفسها، وفي حق البشرية جمعاء⁽¹⁾.

ولذلك جعل الله تعالى رابطة الدين والإيمان فوق كل الروابط الجاهلية الفاسدة مثل رابطة الدم، ورابطة اللون أو اللغة، أو رابطة الوطن أو الإقليم أو رابطة الحرفة، أو الطبقة، أو غير ذلك من الروابط الجاهلية التي تختلف اختلافاً جذرياً مع أصول الإسلام ومنطلقاته في الموالاة والمعاداة والحب والبغض، قال تعالى: ﴿يَتَأَيَّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْتُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: 13] فالمقياس لتفاوت الأفراد في الإسلام هو التقوى والعمل الصالح، وهذا المبدأ يحقق العدل بالنسبة لكافة المنتمين إليه ويسع العالم أجمع دون أي تمييز بينهم فيما عدا التقوى والعمل الصالح⁽²⁾.

إن الإيمان الحقيقي يجعل من أتباعه إخوة متحابين يعملون على رضى مولاهم العظيم، قال تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: 103].

إن الفهم الصحيح لحقيقة الإيمان وكلمة التوحيد لها آثار في حياة الإنسان: وتلك الآثار لها أثر في التمكين فمن أهم هذه الآثار:

1 - ماتنشئه في النفس من الأنفة وعزة النفس بحيث لا تقوم دونه شيء؛ لأنه لا نافع إلا الله، وهو المحيي والمميت. وهو صاحب الحكم والسلطة والسيادة. ومن ثم ينزع من القلب كل خوف إلا منه سبحانه، فلا يطأطئ الرأس أمام أحد من الخلق، ولا يتضرع إليه، ولا يتكفف له، ولا يرتاع من كبريائه وعظمته؛ لأن الله هو العظيم القادر. وهذا بخلاف المشرك والكافر.

(1) انظر: الموالاة والمعاداة (1/ 246).

(2) انظر: المصدر السابق نفسه.

2 - ينشأ من الإيمان بهذه الكلمة من أنفة النفس وعزتها: تواضع من غير ذل، وترفع من غير كبر، فلا يكاد ينفخ أوداجه شيطان الغرور ويزهيه بقوته وكفاءته، لأنه يعلم ويستيقن أن الله الذي وهبه كل ما عنده قادر على سلبه إياه إذا شاء. أما الملحد فإنه يتكبر ويطر إذا حصلت له نعمة عاجلة.

3 - المؤمن بهذه الكلمة: يعلم علم اليقين أنه لا سبيل إلى النجاة والفلاح إلا بتزكية النفس والعمل الصالح.

4 - من آثار الإيمان الصحيح عدم تسرب اليأس، والبعد عن القنوط، لأنه يؤمن أن الملك والخزائن لله رب العالمين، لذلك فهو على طمانينة وسكينة، وأمل، حتى ولو طرد العبد أو أهين وضاعت عليه سبل العيش.

5 - من آثار كلمة الإيمان والتوحيد في نفس العبد: إعطاء قوة عظيمة من العزم والإقدام والصبر والثبات والتوكل والتطلع إلى معالي الأمور ابتغاء مرضاة الله تعالى مع شعوره أن وراءه قوة مالك السماء والأرض. فيكون ثباته ورسوخه وصلابته التي يستمدّها من هذا التصور كالجبال الراسية، وأنى للكفر والشرك بمثل هذه القوة والثبات؟

6 - من آثار الإيمان الحقيقي تشجيع الإنسان وامتلاء قلبه جرأة، لأن الذي يجبن الإنسان ويوهن عزمه شيثان: حبه للنفس والمال والأهل، أو اعتقاده أن هناك أحداً غير الله يميت الإنسان، فإيمان المرء بلا إله إلا الله يرفع عن قلبه كلاً من هذين السببين، فيجعله موقناً بأن الله هو المالك الوحيد لنفسه وماله فعندئذ يضحى في سبيل مرضاة ربه بكل غال ورخيص عنده. وينزع الثاني بأن يلقي في روعه أنه لا يقدر على سلب الحياة منه إنسان ولا حيوان ولا قنبلة ولا مدفع، ولا سيف ولا حجر وإنما يقدر على ذلك الله وحده. من أجل ذلك لا يكون في الدنيا أشجع ولا أجراً ممن يؤمن بالله تعالى، فلا يكاد يخيفه أو يثبت في وجهه زحف الجيوش، ولا السيوف المسلولة، ولا مطر الرصاص والقنابل.

7 - ومن ثمار الإيمان الصحيح: التحلي بالأخلاق الرفيعة، والتطهر من الأخلاق الوضيعة.

8 - ومن ثمار الإيمان جعل العبد حريصاً على التمسك بشرع الله تعالى ومحافظةً عليه..

9 - ومن ثمار الإيمان تربية العبد على أن يكون جندياً من جنود الدعوة التي تسعى لتحكيم شرع الله، وتمكين دينه سبحانه وتعالى.

إن من شروط التمكين لدين الله تعالى في الأرض تحقيق الإيمان الذي يريده الله وبينه رسوله ﷺ وتجسد في حياة أصحابه .

إن الإيمان المطلوب هو الذي يبعثنا على الحركة والهمة، والنشاط والسعي، والجهد والمجاهدة، والجهاد والتربية، والاستعلاء والعزة، والثبات واليقين⁽¹⁾ .

يقول الشيخ حسن البنا - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى - مفرقاً بين إيمان خامل وإيمان عامل، إيمان المسلم القاعد وإيمان المسلم الداعية: تحت عنوان «إيمانان»:

«والفرق بيننا وبين قومنا بعد اتفاقنا في الإيمان بهذا المبدأ، أنه عندهم إيمان مخدر نائم في نفوسهم، لا يريدون أن ينزلوا على حكمه ولا أن يعملوا بمقتضاه... على أنه إيمان ملتهب مشتعل قوي يقظ في نفوس الإخوان المسلمين... ظاهرة نفسية عجيبة نلمسها ويلمسها غيرنا في نفوسنا نحن الشرقيين: أن نؤمن بالفكرة إيماناً يخيل للناس حين نتحدث إليهم عنها أنها ستحملنا على نسف الجبل وبذل النفس والمال واحتمال المصاعب ومقارعة الخطوب حتى نتنصر بها أو تنتصر بنا، حتى إذا هدأت ثائرة الكلام وانفض نظام الجمع، نسي كل إيمانه وغفل عن فكرته، فهو لا يفكر في العمل لها، ولا يحدث نفسه بأن يجاهد أضعف الجهاد في سبيلها، بل قد يبالغ في هذه الغفلة وهذا النسيان، حتى يعمل على ضدها وهو يشعر أو لا يشعر... أو لست تضحك عجباً حين ترى رجلاً من رجال الفكر والعمل، والثقافة في ساعتين اثنتين متجاورتين من ساعات النهار: ملحداً من الملحدين، وعابداً مع العابدين»⁽²⁾ .

إن الإيمان الذي جاء به القرآن الكريم وبَيَّنَّه سيد الخلق أجمعين عليه أفضل الصلاة والتسليم ليس إيماناً مجرداً حبيس دائرة الذهن والتصور، بل هو تصديق يتبعه عمل، وإقرار يتبعه التزام، واعتقاد يتبعه خضوع .

فحقيقة الإيمان في القرآن الكريم يدفع العبد المؤمن إلى جهاد ودعوة، والتزام وحركة، وتواصل بالحق وثبات عليه، وتواصل بالصبر وحث عليه⁽³⁾ .

يقول سيد قطب - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى -: «والعمل الصالح هو الثمرة الطيبة للإيمان، والحركة الذاتية التي تبدأ في ذات اللحظة التي تستقر فيها حقيقة الإيمان في القلب، فالإيمان حقيقة إيجابية متحركة، ما إن تستقر في الضمير حتى تسعى بذاتها إلى تحقيق ذاتها في الخارج في صورة

(1) انظر: في ظلال الإيمان، ص 63.

(2) رسائل حسن البنا، ص 16.

(3) انظر: في ظلال الإيمان، ص 64.

عمل صالح... هذا هو الإيمان الإسلامي... لا يمكن أن يظل خامداً لا يتحرك، كامناً لا يتبدى في صورة حية خارج ذات المؤمن. فإن لم يتحرك هذه الحركة الطبيعية فهو مزيف أو ميت، شأنه شأن الزهرة لا تمسك أريجها. فهو ينبعث منها انبعاثاً طبيعياً، وإلا فهو غير موجود.

ومن هنا قيمة الإيمان... إنه حركة وعمل وبناء وتعمير... يتجه إلى الله... إنه ليس انكماشاً وسلبية وانزواء في مكونات الضمير... وليس مجرد النوايا الطيبة التي لا تتمثل في حركة، وهذه طبيعة الإسلام البارزة التي تجعل منه قوة كبرى في صميم الحياة⁽¹⁾.

والإيمان - يعد - قوة دافعة وطاقة مجمعة، فما تكاد حقيقته تستقر في القلب حتى تتحرك لتعمل، ولتحقق ذاتها في الواقع، ولتوائم بين صورتها المضمرمة وصورتها الظاهرة، كما أنها تستولي على مصادر الحركة في الكائن البشري كلها، وتدفعها في الطريق.

«ذلك سر قوة العقيدة في النفس، وسر قوة النفس بالعقيدة. سر تلك الخوارق التي صنعتها العقيدة في الأرض، وما تزال في كل يوم تصنعها الخوارق التي تغير وجه الحياة من يوم إلى يوم، وتدفع بالفرد، وتدفع بالجماعة إلى التضحية بالعمر الفاني المحدود في سبيل الحية الكبرى التي لا تفتنى، وتقف بالفرد القليل الضئيل أمام قوى السلطان وقوى المال وقوى الحديد والنار، فإذا هي كلها تنهزم أمام العقيدة الدافعة في روح فرد مؤمن. وما هو الفرد الفاني المحدود الذي هزم تلك القوى جميعاً، ولكنها القوة الكبرى الهائلة التي استمدت منها تلك الروح، والينبوع المتفجر الذي لا ينضب ولا ينحسر ولا يضعف»⁽²⁾.

«تلك الخوارق التي تأتي بها العقيدة الدينية في حياة الأفراد وفي حياة الجماعات لا تقوم على خرافة غامضة، ولا تعتمد على التهويل والرؤى. إنها تقوم على أسباب مدركة وعلى قواعد ثابتة. إن العقيدة الدينية فكرة كلية تربط الإنسان بقوى الكون الظاهرة والخصبة، وتثبت روحه بالثقة والطمأنينة، وتمنحه القدرة على مواجهة القوى الزائلة والأوضاع الباطلة، بقوة اليقين في النصر، وقوة الثقة في الله، وهي تفسر للفرد علاقاته بما حوله من الناس والأحداث والأشياء، وتوضح له غايته واتجاهه وطريقه، وتجمع طاقاته وقواه كلها، وتدفعها في اتجاه. ومن هنا كذلك قوتها. قوة تجميع القوى والطاقات حول محور واحد، وتوجيهها في اتجاه واحد، تمضي إليه مستتيرة الهدف، في قوة، وفي ثقة وفي يقين.

ويضاعف قوتها أنها تمضي مع الخط الثابت الذي يمضي فيه الكون كله ظاهرة وخافية.

(1) في ظلال القرآن (6/ 3966، 3967).

(2) في ظلال القرآن (6/ 3353).

وأن كل ما في الكون من قوى مكنونة تتجه اتجاهاً إيمانياً، فيلتقي المؤمن في طريقه، وينضم إلى زحفها الهائل لتغليب الحق على الباطل مهما يكن للباطل من قوة ظاهرة لها في العيون بريق⁽¹⁾.

وبهذا لعلي أكون قد أوضحت حقيقة الإيمان التي نسعى لإيجادها في أفراد الأمة والجماعة المسلمة لنقطع خطوة نحو التمكين المنشود.

(1) في ظلال القرآن (6/ 3353).

المبحث الثاني

تحقيق العبادة

أولاً: معنى العبادة في اللغة والشرع:

أ - في اللغة: العبادة، والعبودية، والعبودية: الطاعة⁽¹⁾.

وفي لسان العرب: أصل العبودية: الخضوع والتذلل.

والتعبد: التنسك، والعبادة: الطاعة.

والتعبد: التذلل، والتعبيد: التذليل.

بغير معبد مذلل، وطريق معبد، مسلك مذلل⁽²⁾.

ويرى أبو الأعلى المودودي في معنى العبادة استناداً إلى الاستعمال اللغوي لمادة (ع ب

د) إن أصل معنى العبادة هو الإذعان الكلي، والخضوع الكامل والطاعة المطلقة⁽³⁾.

ب - العبادة في الشرع: خضوع وحب⁽⁴⁾، والعبادة المأمور بها العبد تتضمن معنى الذل

والخضوع لله، ومعنى الحب فهي تتضمن غاية الذل لله بغاية المحبة له⁽⁵⁾.

قال ابن تيمية - رَحِمَهُ اللهُ -: «والإله هو المعبود الذي يستحق غاية الحب والعبودية والإجلال

والإكرام، والخوف، والرجاء...»⁽⁶⁾.

(1) القاموس المحيط كتاب (الدال)، فصل (العين)، ص: 378.

(2) لسان العرب، كتاب (الدال)، فصل (العين): 3 / 271.

(3) المصطلحات الأربعة في القرآن للمودودي، ص 97.

(4) العبادة في الإسلام للقرضاوي، ص 31.

(5) انظر: مجموع الفتاوى (1 / 207).

(6) مجموع الفتاوى (28 / 35).

وينص ابن القيم - رحمته الله - على أن «العبادة تجمع أصليين: غاية الحب بغاية الذل والخضوع»⁽¹⁾ ودعائم هذه العبادة التي تنتظم أعمال الإنسان كلها القلبية، والعملية الفردية والجماعية: المحبة والخوف والرجاء، وقد جعل ابن القيم هذه الثلاث في قلب المؤمن: «بمنزلة الطائر، فالمحبة رأسه، والخوف والرجاء جناحاه فمتى سلم الرأس والجناحان فالطائر جيد الطيران، ومتى قطع الرأس مات الطائر، ومتى فقد الجناحان فهو عرضة لكل صائد وكاسر»⁽²⁾ وبهذا يتضح مفهوم العبادة في الشرع.

ثانياً: حقيقة العبادة:

إن من شروط التمكين لدين الله تحقيق العبادة لله في دنيا الناس، وعلى الجماعة المسلمة أن تفهم حقيقة العبادة في القرآن الكريم وسنة سيد المرسلين عليه أفضل الصلاة والتسليم وأن تعمل على نشر المفهوم الصحيح لمعنى العبادة في شرايين الأمة حتى تخرج من الأوهام والمغالطات، والخرافات التي ما أنزل الله بها من سلطان.

لقد ساد بين الناس مفاهيم خاطئة للعبادة، صرفت عقولهم وقلوبهم وأعمالهم عن هذه الوظيفة التشريعية التي خلق الله الإنسان من أجلها، وسخر له كل شيء في نفسه وفي الكون من حوله، ليقوم بها وفق أمر خالقه. وعند تأمل القرآن الكريم والسنة النبوية وما تحويه من أخبار، وأوامر، ونواه ووعود ووعيد، نجدها كلها تدور حول تقرير ألوهية الله سبحانه وتعالى، وعبودية الإنسان له.

فإذا كان خلق الإنسان وتسخير الكون له، وإيجاد العقل والقلب والإرادة فيه، وإرسال الرسل وإنزال الكتب وخلق الجنة والنار، وقبل ذلك وبعده ما تقتضيه صفات الباري - جلّ وعلا - من كونه في ذاته وأفعاله سبحانه وتعالى حكيماً عليماً، خلق كل شيء فقدره تقديراً، ولم يخلق شيئاً عبثاً، ولم يوجد شيئاً لغير حكمة، وإذا كان القرآن المجيد، وما فيه من أخبار وأوامر ووعود ووعيد جاء لأجل هذه المهمة العظيمة، ألا وهي تعبيد الخلق كلهم لله سبحانه فكيف يصح حينئذ أن يتصور أن العبادة هي النية النقية وحسب، أو أنها الشعائر التعبدية فقط، أو أنها لبعض نشاطات الإنسان دون بعض، أو لبعض أفعاله وأحواله دون بعض؟

بل إن دائرة العبادة التي خلق الله لها الإنسان، وجعلها غايته في الحياة، ومهمته في

(1) مدارج السالكين (1/ 74).

(2) المصدر نفسه (1/ 517).

الأرض، دائرة رحبة واسعة: إنها تشمل شؤون الإنسان كلها، وتستوعب حياته جميعاً، وتستغرق كافة مناشطه وأعماله⁽¹⁾ وبهذا المعنى الشامل، فهم السلف الصالح عبادة الإنسان فرداً كان أو جماعة، وقد لخص هذا المعنى الشامل للعبادة وحدد ماهيتها شيخ الإسلام ابن تيمية - رَحِمَهُ اللهُ - حين قال: «العبادة: هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه: من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة، فالصلاة والزكاة والصيام والحج، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والوفاء بالعهود والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد للكفار والمنافقين والإحسان إلى الجار واليتامى والمسكين وابن السبيل والمملوك من آدميين والبهائم، والدعاء والذكر والقراءة، وأمثال ذلك من العبادة، وكذلك حب الله ورسوله وخشية الله والإنابة إليه وإخلاص الدين له، والصبر لحكمه، والشكر لنعمه، والرضا بقضائه، والتوكل عليه، والرجاء لرحمته، والخوف لعذابه، وأمثال ذلك: هي من العبادة لله...»⁽²⁾.

وبهذا التعريف الجامع لا يمكن أن يخرج أي شيء من نشاطات الإنسان وأعماله، سواء كان ذلك في العبادات المحضة، أو في المعاملات المشروعة، أو في العادات التي طبع الإنسان على فعلها.

أما في العبادات والمعاملات المشروعة فإنها مما يحبه الله ويرضاه، وهذا أمره الشرعي الدائر بين الأحكام الخمسة التي اصطلح عليها الفقهاء وهي: «الواجب، والمحرم، والمستحب، والمكروه، والمباح» أما في العادات فالذي لم يجز منها بأوامر الشرع، ولم يتقيد بأحكامه على وجه الخصوص، فإنه لا يخرج عن كونه داخلاً تحت عمومات الشرع باعتبار عبودية الإنسان في كل أحواله لله سبحانه وباعتبار أن «العادات لها تأثير عظيم فيما يحبه الله، أو فيما يكرهه؛ فلهذا أيضاً جاءت الشريعة بلزوم عادات السابقين في أقوالهم وأعمالهم وكراهة الخروج عنها إلى غيرها من غير حاجة»⁽³⁾.

وإن كان ينبغي لنا هنا الإشارة إلى أن الأصل في العبادات المحضة المنع حتى يرد ما يدل على مشروعيتها، وإن أصل العادات العفو حتى يرد ما يدل على منعها، وذلك مبنى على «أن تصرفات العباد من الأقوال والأفعال نوعان: عبادات يصلح بها دينهم، وعادات يحتاجون إليها في دنياهم، فباستقراء أصول الشريعة نعلم أن العبادات التي أوجبها الله، أو أحبها لا

(1) انظر: العبادة في الإسلام للقرضاوي، ص 53.

(2) مجموع الفتاوى (10 / 150).

(3) مجموع الفتاوى (29 / 116 - 117).

يثبت الأمر بها إلا بالشرع، وأما العادات فهي ما اعتاده الناس في دنياهم مما يحتاجون إليه، والأصل فيها عدم الحظر، فلا يحظر منه إلا ما حظره الله سبحانه وتعالى، وذلك لأن الأمر والنهي هما شرع الله، والعبادة لا بد أن يكون مأموراً بها، فما لم يثبت أنه مأمور به، كيف يحكم عليه بأنه عبادة؟!

وما لم يثبت من العبادات أنه منهي عنه، كيف يحكم عليه أنه محظور؟ والعبادات الأصل فيها العفو، فلا يحظر منها إلا ما حرم⁽¹⁾.

وهذا التقسيم في الحظر والإباحة لا يخرج شيئاً من أفعال الإنسان العادية من دائرة العبادة لله، ولكن ذلك يختلف في درجته ما بين عبادة محضة وعادة مشوبة بالعبادة، وعادة تتحول بالنية والقصد إلى عبادة، لأن المباحات يؤجر عليها بالنية والقصد الحسن إذا صارت وسائل للمقاصد الواجبة، أو المندوبة أو تكميلاً لشيء منهما⁽²⁾.

وقال النووي في شرحه لحديث: «في بضع أحدكم صدقة»⁽³⁾: «وفي هذا دليل على أن المباحات تصير طاعات بالنية الصادقة»⁽⁴⁾.

ومن ذلك يتضح: «إن الدين كله داخل في العبادة، والدين منهاج الله جاء ليسع الحياة كلها، وينظم جميع أمورها من أدب الأكل والشرب وقضاء الحاجة إلى بناء الدولة، وسياسة الحكم، وسياسة المال، وشؤون المعاملات والعقوبات، وأصول العلاقات الدولية في السلم والحرب.

إن الشعائر التعبدية من صلاة، وصوم، وزكاة، لها أهميتها ومكانتها ولكنها ليست العبادة كلها بل هي جزء من العبادة التي يريد الله تعالى.

إن مقتضى العبادة المطالب بها الإنسان، أن يجعل المسلم أقواله وأفعاله وتصرفاته وسلوكه وعلاقاته مع الناس وفق المناهج والأوضاع التي جاءت بها الشريعة الإسلامية، يفعل ذلك طاعة لله واستسلاماً لأمره...»⁽⁵⁾.

والدليل على المفهوم الشامل للعبادة، من الكتاب والسنة وفعل الصحابة رضوان الله

(1) اقتضاء الصراط المستقيم (1/ 399).

(2) انظر: حقيقة البدعة وأحكامها للغامدي (1/ 19).

(3) رواه مسلم، كتاب الزكاة، باب إن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف (1/ 697).

(4) مسلم مع شرح النووي، كتاب الزكاة، باب كل نوع من المعروف صدقة (7/ 97).

(5) مقاصد المكلفين، د. عمر الأشقر، ص 46، 47.

عليهم: فأما من القرآن الكريم فقولته تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ آلِينَ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: 56]، ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: 31]، ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: 177]، ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: 5].

ومن السنة أحاديث كثيرة بعضها في عموم العادات بدون تخصيص وبعضها الآخر في أفراد السلوك العادي، وفي هذا الأخير دليل وتشبيه على المعنى العام المقصود إثباته هنا، فمن ذلك:

قوله ﷺ: «إن المسلم إذا أنفق على أهله نفقة، وهو يحتسبها كانت له صدقة»⁽¹⁾.

وقوله ﷺ: «كل ما صنعت إلى أهلك فهو صدقة عليهم»⁽²⁾ وقوله ﷺ: «دينار أنفقته في سبيل الله، ودينار أنفقته في ربة، ودينار تصدقت به على المسكين، ودينار أنفقته على أهلك، أعظمها أجراً الذي أنفقته على أهلك»⁽³⁾ وقال ﷺ: «في كل سلامى من الناس عليه صدقة، كل يوم تطلع فيه الشمس، يعدل بين الاثنين صدقة، ويعين الرجل على دابته فيحمل عليها، أو يرفع عليها متاعه صدقة، والكلمة الطيبة صدقة، وكل خطوة يخطوها إلى الصلاة صدقة، ويميط الأذى عن الطريق صدقة»⁽⁴⁾.

وأما الاستدلال على عموم العبادة وشمولها لحياة الإنسان بفعل السلف وفهمهم ففيما روى البخاري في صحيحه عن أبي بردة⁽⁵⁾ في قصة بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن. وفي آخره قال أبو موسى لمعاذ: «فكيف تقرأ أنت يامعاذ؟ قال: أنام أول الليل فأقوم وقد قضيت جزئي من النوم فأقرأ ما كتب الله لي، فأحتسب نومتي كما أحتسب قومتي»⁽⁶⁾، وفي كلام معاذ رضي الله عنه، دليل على أن المباحات يؤجر عليها بالقصد والنية. وهذا الفهم يجعل المسلم يقبل

(1) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب ما جاء أن الأعمال بالنيات (1/ 24) رقم (55).

(2) سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني (3/ 22).

(3) رواه مسلم، كتاب الزكاة، باب النفقة على العيال والمملوك (1/ 191).

(4) رواه البخاري، كتاب الجهاد، باب من أخذ بالركاب ونحوه (3/ 6، 132 فتح) رقم 2989.

(5) هو التابعي الثقة أبو بردة حارث، وقيل: عامر بن أبي موسى عبد الله بن قيس الأشعري، ثقة كثير

الحديث، تولى قضاء الكوفة للحجاج، ثم عزله. ت 107 هـ. انظر: سير أعلام النبلاء (4/ 343).

(6) البخاري، كتاب المغازي، باب بعثة أبي موسى ومعاذ إلى اليمن (5/ 156) رقم 42، 43.

على شؤون الحياة كلها وكله حرص على إتقانها لكونها عبادة لله تعالى ملتزماً بالشروط الآتية:

1 - أن يكون العمل مشروعاً في نظر الإسلام: أما الأعمال التي ينكرها الدين فلا تكون عبادة بأي حال من الأحوال. قال الرسول ﷺ: «... إن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيباً...»⁽¹⁾.

2 - أن تصحبه النية الصالحة: فينوي المسلم إعفاف نفسه، وإغناء أسرته، ونفع أمته، وعمارة الأرض - كما أمره الله رب العالمين.

3 - أن يؤدي العمل بإتقان وإحسان: قال النبي ﷺ: «إن الله كتب الإحسان على كل شيء...»⁽²⁾.

4 - أن يلتزم في عمله حدود الله تعالى: فلا يظلم، ولا يخون، ولا يغش، ولا يجور.

5 - ألا يشغله عمله لمعاشه عن واجباته الدينية⁽³⁾. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ ءَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المنافقون: 9].

إن من أخطر الانحرافات التي وقعت فيها الأجيال المتأخرة من المسلمين انحرافهم في تصور مفهوم معنى العبادة... وحين يعقد الإنسان مقابلة بين المفهوم الشامل الواسع العميق الذي كانت الأجيال الأولى من المسلمين تفهمه من أمر العبادة، والمفهوم الهزيل الضئيل الذي تفهمه الأجيال المعاصرة، لا يستغرب كيف هوت هذه الأمة من عليائها لتصبح في هذا الحضيض الذي نعيشه اليوم، وكيف هبطت من مقام الريادة، والقيادة للبشرية كلها لتصبح ذلك الغناء الذي تتداعى عليه الأمم تنهشه من كل جانب كما تنهش الفريسة الذئب⁽⁴⁾.

إن من شروط التمكين أن يكون مفهوم العبادة في حس الجيل، إن عبادة الله هي غاية الوجود الإنساني كله، كما نفهم من قول الله سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ آلِئِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: 56].

لقد كان الجيل الأول لهذه الأمة يفهم الحياة كلها على أنها عبادة تشمل الصلاة والنسك، وتشمل العمل كله، وتشمل لحظة الترويح كذلك، فلا شيء في حياة الإنسان كلها خارج من

(1) مسلم، كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب (2/ 703).

(2) مسلم مع شرح النووي، كتاب الصيد، باب الأمر بإحسان الذبح (13/ 106).

(3) انظر: العبادة في الإسلام للدكتور القرضاوي، ص 62، 63.

(4) انظر: مفاهيم ينبغي أن تصحح لمحمد قطب، ص 173.

دائرة العبادة... وإنما هي ساعة بعد ساعة في أنواع مختلفة من العبادة. كلها عبادة وإن اختلفت أنواعها ومجالاتها⁽¹⁾.

وبهذا الفهم العميق لمفهوم العبادة حققت تلك الأمة في سالف عهدها ما حققته من منجزات في كل اتجاه، فحين كانت تمارس الأمة إيمانها الحق، وعبادتها الحققة. وكانت الأخلاق في حسبها جزءاً من العبادة المفروضة على المسلم، حدثت إنجازات هائلة لم تتكرر في التاريخ. ففي أقل من نصف قرن امتد الفتح الإسلامي من الهند شرقاً إلى المحيط غرباً وهي سرعة مذهلة لا مثيل لها في التاريخ كله. ولم يكن الكسب هو الأرض التي فتحت، وإنما كان الكسب الأعظم هو القلوب التي اهتدت بنور الله فدخلت في دين الله أفواجا⁽²⁾.

وما كانت تلك الأمة لتقدر على ذلك حصون الشرك، واقتلاعها بمثل هذه السهولة، وبمثل هذه السرعة، وما كانت لتقدر على إبراز تلك المثل الرفيعة التي أبرزتها في عالم الواقع، من إقامة العدل الرباني في الأرض ونظافة التعامل، والوفاء بالمواثيق، وشجاعة النفس، والبطولة الفذة في ميدان الحرب والسلم سواء. وما كانت لتقدر على إنشاء حركتها العلمية الضخمة، ولا خركتها الحضارية السامقة... ماكانت لتقدر على ذلك كله، ولا على شيء منه، لولا هذا الإحساس العميق لديها بأنها في ذلك كله تقوم بالعبادة التي خلق الله الإنسان من أجلها وتقوم به بذات الحس الذي تؤدي به الصلاة⁽³⁾.

هكذا كانت العبادة تصوراً وفهماً وعملاً عند الأجيال المسلمة الأولى⁽⁴⁾ ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها: تصحيح المفاهيم أولاً، ثم إقامة بناء جديد على المفاهيم الصحيحة للإسلام⁽⁵⁾.

إن قضية العبادة ليست قضية شعائر، وإنما هي قضية دينونة، واتباع... وإنما لذلك استحققت كل هذه الرسل والرسالات، وكل هذا الاهتمام⁽⁶⁾.

وحتى تستحق الأمة الإسلامية اليوم وعد الله بالتمكين، فإن عليها أن تصوغ حياتها كلها صياغة جديدة على منهج الله رب العالمين، لتصبح كلها عبادة من لحظة التكليف إلى لحظة

(1) مفاهيم ينبغي أن تصحح، ص 203، 204.

(2) المصدر نفسه، ص 222.

(3) المصدر نفسه، ص 192.

(4) انظر: التمكين للأمة الإسلامية، ص 59.

(5) انظر: مفاهيم ينبغي أن تصحح، ص 250، 251.

(6) انظر: في ظلال القرآن (4/ 1943).

الموت، لاتندُّ عنها لحظة واحدة من لحظات الوعي، ولا لمحة، ولا خاطر، ولا لون من ألوان النشاط⁽¹⁾، امثالاً وتحقيقاً لقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: 162]، إن من أسباب ضياع الأمة وضعفها، وانهزامها أمام أعدائها فقدما لشروط مهم من شروط التمكين ألا وهو تحقيق العبودية بمفهومها الشامل الصحيح.

ثالثاً: أهمية الجانب العبادي في حياة الإنسان:

إن العبادات التي سنها الله لنا ذات تأثير شمولي مشرق، ولها أخطر المهمات في تمكين الحقائق العليا للرسالات الإلهية، وتحقيق الفطرة الإنسانية على وجهها الصحيح المستقيم، طالما تمثلت فيها عناصر الحب والذل، والرجاء والخوف، ونحوها، ومعلوم لدى العلماء أن للعبادة مقصداً أصلياً، وهو التوجه إلى الواحد الصمد، وإفراده بالعبادة في كل حال، طلباً لرضى الله، والفوز بالدرجات العلى، وهناك مقاصد تابعة للعبادة، صلاح النفس واكتساب الفضيلة فالصلاة مثلاً أصل مشروعتها الخضوع لله تعالى، وإخلاص التوجه إليه، والانتصاب على قدم الذلة والصغار بين يديه، وتذكير النفس بذكره، قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: 14]، وقال: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: 45]، يعنى أن اشتغال الصلاة على التذكير بالله هو المقصود الأصلي، ثم إن لها مقاصد تابعة كالاستراحة إليها من أنكد الدنيا وإنجاح الحاجات كصلاة الاستخارة وصلاة الحاجة وكذلك سائر العبادات لها فوائد أخروية وهي العامة، وفوائد دنيوية وهي كلها تابعة للفائدة الأصلية وهي الانقياد والخضوع لله⁽²⁾.

وإذا تأملنا في مهمة العبادة يمكننا أن نستخلص الآتي:

1 - تثبيت الاعتقاد:

إن روح العبادة هو إشراب القلب حب الله تعالى، وهيبته، وخشيته والشعور الغامر بأنه رب الكون ومليكه، والتوجه دائماً بما شرع من شعائر ونسك، باعتبارها مظهراً عملياً دائماً لصدق الإنسان في دعوى الإيمان، وتذكيراً مستمراً بسلطان الإله الأعلى، وإلهاباً متجدداً لجذوة اليقين في الله، ورجاء فضله وثوابه.

(1) انظر: التمكين للأمة الإسلامية، ص 59.

(2) انظر: العبادة في الإسلام للقرضاوي، ص 48، 49.

ولنأخذ مثلاً عبادياً لتثبيت معنى التوحيد، وإجلال الله تعالى، وهو (الأذان) وقد شرع للإعلام بدخول أوقات الصلاة المفروضة، فهو يتكرر في اليوم واللييلة خمس مرات، وينادي به منادي المسلمين صوتاً في كل مكان يوجد به تجمع إسلامي، ولو كان أدنى الجمع من المسلمين، بل شرع مع ذلك للمسافر، والمنفرد، ولو كان في بادية لما يمثله من معان عظيمة ليست مجرد الإعلام بدخول الوقت.

إن المؤذن حين ينادي بصوته الأعلى: «الله أكبر الله أكبر» ثم يكررها، يطلب شرعاً أن يردده معه كل مسلم ومسلمة حين يسمعون هذا القول الأجل، لينسكب في مشاعر الجميع وفي أوقات متكررة متقاربة، معنى الكبرياء المطلق لله رب العالمين، وأنه تعالى فوق كل شيء وأكبر من كل شيء، فينبغي أن يعتز به وحده، ويلوذ بحماه وكنفه، ويستعلي فوق أعناق الطواغيت والجبارين بهذا النداء الجهير، الذي أراد الله ﷻ أن يتواطأ عليه المجتمع كله، وأن يظل حتى المنفرد على صلة دائمة به.

فإذا تقرر هذا المعنى عاد النداء الأجل ليملاً الآفاق: (أشهد أن لا إله إلا الله) وهو تذكير يومي بالعهد والميثاق الذي أعطاه العبد لربه بأن لا يعبد ولا يطيع إلا ربه الأكبر، المنفرد بالكبرياء في السموات والأرض.

ثم يأتي الشق الثاني من الشهادة: «أشهد أن محمداً رسول الله» وهو كما علمت إقرار متكرر أيضاً بالطريق الذي تؤخذ عنه العبادة المشروعة. والتي لا تصح إلا بالتلقي عن الوحي الإلهي الذي جاء به المعصوم ﷺ.

ثم يأتي رابعاً: الدعوة إلى الصلاة نفسها في جملتين فقط: «حي على الصلاة، حي على الصلاة» لأن الأذان كما قلنا أبعد مدى، وأشمل آثاراً.

ثم يأتي خامساً: الدعوة العامة إلى الصلاح المطلق، المتمثل في الاستجابة لهذا الدين الإلهي الأغر، ومثله وتعاليمه، وفي مقدمتها الصلاة بداهة⁽¹⁾.

ولذلك يعود الشارع بالمؤذن إلى نقطة البدء ليكبر في الختام للتأكيد على تفرده تعالى بالكبرياء، وإعلان التوحيد بصيغة الإقرار والإثبات بعد صيغة الشهادة السابقة «الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله» معنى هذا أن الأذان وحده يجري على ألسنة المؤمنين، ويسكب في ضمائرهم، ويغرس في حياتهم ووجدانهم أفراد الله تعالى بالكبرياء ثلاثين مرة يومياً، وإفراده

(1) وسطية القرآن في العبادة والأخلاق والتشريع، ص 40.

تعالى بصفة الألوهية التي تفرده بالعبادة والطاعة «خمس عشرة» مرة، وهو نداء لا يتقيد بحدود معبد، أو مسجد، وإنما ينطلق ليدخل كل بيت، ويصافح كل سمع، ويطرق كل قلب يريد الهدى.

وإذا كان هذا هدف الوسيلة في تقرير الأصول العليا فإن القصد الذي تؤدي إليه وهي «الصلاة» أعظم شأنًا، وأتم مظهرًا، فقد فرضها الله على كل بالغ من الذكور والإناث خمس مرات في اليوم والليلة، وهو يبدأ بالتكبير ويطلب المصلي بتكرار هذه الجملة «الله أكبر» في صلوات الفرض فقط «أربعاً وتسعين مرة». . . عدا ما يقرع سمعه بعددها من صلوات إمامه إذا صلى جماعة، فضلاً عن السنن الراتبية والنوافل المطلقة وهي أضعاف ذلك.

ثم إن العبد يتلو كتاب ربه في صلاته، ويحني له ظهره راکعاً، ويخر بجبهته ساجداً، ويناجي مولاه معظماً، ومسبحاً، وحامداً، وداعياً، وليس هناك في الوجود أسمى وأجل من هذه الشعيرة في ربط العبد بهذا السلطان الإلهي، وإلهاب نفسه بمعاني عظمتة وسموه⁽¹⁾.

إن الصلاة - عندما تؤخذ على وجهها الصحيح - واحة وراحة يسكن إلى ظلها المؤمن كلما مسه تعب الحياة ولغوبها. وهذا مصداق قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [المعارج: 19 - 23].

2 - تثبيت القيم الأخلاقية:

فقد جاء المنهاج الرباني في العبادة ليطم مكارم الأخلاق، ويدعو الناس إلى المثل العليا، والفضائل الكريمة كالصبر، والمثابرة، والسماحة، والسخاء، والصدق، والتي تحقق للإنسان سعادته في الدنيا فضلاً عن الآخرة، وللعبادات بأنواعها مهمة عظيمة في تثبيت هذه الأخلاق، وتدعيمها، وغرسها في نفس المؤمن ووجدانه، «فالصلاة» مثلاً تعود المؤمن الصبر، والدأب، والإخلاص والنظام، حتى تصبح جميعاً خلقاً راسخاً في النفس، فالمسلم النائم حين يقوم من لذة النوم على نداء المؤذن «الصلاة خير من النوم»، وكذلك حين ينسحب من ضجيج الأسواق والبيع والشراء ملياً لنداء «حي على الصلاة»، ثم لا يزال دأبه هكذا عبر الساعات، والأيام، والأعوام، فهذا وأمثاله لا بد أن تتربى فيهم هذه المعاني الخلقية العالية⁽²⁾.

(1) انظر: المنهاج القرآني في التشريع، ص 458.

(2) وسطية القرآن في العبادة والأخلاق والتشريع، ص 42.

و«الزكاة» التي أخذت من معنى الزيادة، والنماء، والتطهير، لها - هي الأخرى - أكبر الأثر في تنقية الخلق أمام هواتف الشح والبخل والإمساك، وفي طبعه بطبائع البذل، والعطاء، والسخاء، كذلك تستل السخيمة من صدور المحتاجين، وتبدل به شيئاً من خلق الحب، والمودة، أو على الأقل سلامة الصدور، فتشيع في المجتمع تبعاً لذلك كل علائق التداني والتقارب، وتتداخل صلوات الناس بمشاعر الألفة، وإلى مثل هذا يشير قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ [التوبة: 103].

و«الصوم» له عمله الأساسي في تربية الإرادة الإنسانية، والضمير الحي اليقظ الذي يتعامل على أساس من رقابة الله تعالى له، وإطلاعه عليه، فضلاً عن غرس خليقة الصبر، والضبط النفسي بالإمساك الطويل عن شهوتي البطن والفرج، وبالكف عن اللغو، والصخب، والقدرة على تغيير عاداته حتى لا يعود الجمود، أو تستعبده عاداته وتقاليده⁽¹⁾.

ثالثاً: إصلاح الجانب الاجتماعي:

ويظهر ذلك في الصلاة ودورها في إيجاد العلاقات الاجتماعية وذلك واضح في الحكمة من صلاة الجماعة، لأن لاجتماع المسلمين راغبين في الله راجين، راهبين، مسلمين وجوههم إليه خاصة عجيبة في نزول البركات، وتدلي الرحمة فيحدث التعاون، والتعارف، والوحدة والاجتماع على الخير.

ثم تأتي صلاة الجمعة: فتجتمع أهل الحي على هيئة جامعة أكثر من ذلك في كل يوم جمعة، حيث شرع الله لنا خطبتها تذكيراً وتعليماً للمسلمين بما يصلح دينهم ودنياهم، كحد أدنى للثقيف العام في أمور الدين، ثم تأتي صلاة العيد، فتجتمع أهل المدينة كلها مرتين في السنة في عيد الفطر والأضحى، يخرجن الأبيكار والعواتق⁽²⁾، بل والحیض يشهدن الخير ودعوة المسلمين، ويعتزلن المصلى كما جاء في الحديث الصحيح الذي ترويه أم عطية رضي الله عنها⁽³⁾ قالت: أمرنا أن نخرج العواتق وذوات الخدور⁽⁴⁾⁽⁵⁾.

هذا عدا ما شرعه الله تعالى لنا من صلوات جامعة في مناسبات شتى، كالاستسقاء

(1) انظر: المنهاج القرآني في التشريع، ص 460.

(2) العواتق: جمع عاتقة، وهي التي عتقت من الخدمة أو من قهر أبيها.

(3) هي نسيبة بنت الحارث، وقيل: بنت كعب من فقهاء الصحابة ت 70 هـ. انظر: سير أعلام النبلاء (2/318).

(4) ذوات الخدور: الستور.

(5) رواه البخاري، كتاب العيدين، باب خروج النساء والحیض إلى المصلى (2/9).

والخسوف والكسوف والجنائز، والتراويح في رمضان. إن الصلاة - لو وعى المسلمون حقيقتها - لهي توجيه وتنظيم اجتماعي كامل، يتمثل فيه المجتمع الكبير، وبقدر ما يحسن المسلمون هذه الصلاة، وما تعنيه من معان وتوجيهات، بقدر ما يرجي لهم إحسان الحياة في اجتماعاتهم، ولا فرق في هذا المنهاج بين المسجد والمجتمع، فكلاهما تجمع يجب أن يخضع لدين الله وتعاليمه⁽¹⁾.

أما الزكاة: في حقيقتها واجب مالي يؤخذ من الأغنياء ليرد على الفقراء، وذوي الحاجة من الغارمين والأرقاء وغيره، وهي بذلك تمثل الحد الأدنى المفروض فرضاً للتعاون الاجتماعي، والتكافل الاقتصادي بين أبناء الأمة الواحدة؛ لذلك جعل الله تعالى معظم مصارفها اجتماعية بحتة، بأوسع المدلولات الاجتماعية في القديم أو الحديث على السواء، وكما جاءت صلاة العيد لتوسع دائرة الاجتماع في الصلاة، تأتي هنا أيضاً «زكاة الفطر» لتوسع قاعدة التكافل والتعاون إلى أقصى حد.

أما الأثر الاجتماعي لفريضة «الحج» فواسع شامل، ولا زالت آثاره تظهر كل يوم بجديد من حكمة الله تعالى في تشريعه، وقد أشار القرآن الكريم إلى كثير من ذلك. قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: 198].

روى البخاري بسنده عن ابن عباس قال: «كانت عكاظ، ومجنة، وذو المجاز أسواقاً في الجاهلية، فتأثموا أن يتجروا في موسم الحج، فسألوا رسول الله فنزلت الآية: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ [البقرة: 198]⁽²⁾ وقال تعالى: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿١٧﴾ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ﴾ [الحج: 27 - 28].

والمنافع المشهودة كلمة جامعة، تشمل المنافع الروحية، والمادية والاجتماعية، والسياسية، والثقافية، والاقتصادية وسائر ما يطلق عليه اسم «المنفعة» وقد جعلت غاية من غايات الحج وتقديمها على ذكر الله تعالى، إيذاناً ببالغ أهميتها في مراتب المنافع والحكم الشرعية، وإن من أعظم هذه الفوائد جمع أطراف الأمة المسلمة كل عام، وما يحققه من استنفار جزء من كل إقليم سنوياً ليركبوا الأخطار والأسفار، ويقطعوا السهول والقفار، أو

(1) انظر: المنهاج القرآني في التشريع، ص 462.

(2) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب ليس عليكم جناح (5/ 186) رقم 4519.

يمتطوا الأجواء والبحار، ويتركوا الأولاد والأهل والديار فيجتمع المسلمون من أطراف الأرض، ويلتقي المشرقي المغربي، والمصري والهندي، في مؤتمر جامع، ورحلة مباركة، وليحققوا عملياً دعوة القرآن بالسير في الأرض، والسياحة في الآفاق، ومطالعة المشاهد المقدسة، ومنازل الوحي، وآثار النبوة منذ أبي الأنبياء إبراهيم إلى خاتمهم محمد ﷺ، ثم مدارج الصحابة رضوان الله عليهم، التي تهب على المسلمين منها روح الإخلاص، والبذل، والعطاء والانقياد المطلق لأمر الله ﷻ⁽¹⁾.

ومن ناحية أخرى فالحج نظام يوجب على الجميع زياً واحداً، وحركة واحدة، وكلمة واحدة، وطاعة واحدة وبتثبيت الاعتقاد، والأخلاق وإصلاح الاجتماع تأخذ العبادات الإسلامية ودورها العظيم في بناء الحياة الإنسانية على أرفع القواعد، وأنبل الغايات، وأكرمها وأطهرها، وتأخذ بالإنسان إلى أفق أرفع من التراب والطين، ومتاع الحياة الفانية، حيث تربطه بالحي الباقي، وبالنعيم الخالد، فهي غسيل مستمر لأدران المادة، وتهذيب لطغيانها، وعبادات الإسلام تقوم في أساسها على مراعاة الرقابة الإلهية، وابتغاء الآخرة، دون واسطة بين العبد وربّه في العبادات كلها، وتحرير الإنسان من عبودية الكهنوت وطقوسها ورسومها⁽²⁾.

إن القرآن الكريم اهتم اهتماماً بالغاً ببيان حقيقة العبودية ودعوة الناس إلى تحقيقها كما ينبغي. كما بين شروط قبول العبادة، وأمر المسلمين بالالتزام بها، ووجه الناس إلى مفاهيم أصيبة في العبودية وحذرهم من الشرك، ومن الانحراف عن معنى العبودية الصحيح، كما أشار إلى أهمية الجانب العبادي في حياة الناس في تثبيت الاعتقاد، وتأسيس القيم والأخلاق وزرعها وغرسها في نفوس المؤمنين، كما اهتم ببيان الجانب العبادي في إصلاح النواحي الاجتماعية، وركز القرآن في توجيهاته الكريمة في مجال العبادة على أفراد الله وحده في العبادة وتحرير العبادة من رق الكهنوت، واهتم بمسألة التوازن بين الروح والجسد، وفتح مجال الرخص والتخفيضات في العبادة، هذا كله من أجل أن تحقق الأمة عبوديتها لخالقها سبحانه وتعالى من أيسر الطرق وأسهل السبل وأخف التكاليف وجعل طريق تحقيق العبودية شرطاً من شروط التمكين بهذه الأمة العظيمة.

إن تقرير حقيقة العبودية في حياة الناس يصحح تصوراتهم ومشاعرهم، كما يصحح

(1) انظر: المنهاج القرآني في التشريع، ص 465.

(2) انظر: المصدر نفسه، ص 468.

حياتهم وأوضاعهم، فلا يمكن أن تستقر التصورات والمشاعر، ولا أن تستقر الحياة والأوضاع على أساس سليم قويم، إلا بهذه المعرفة وما يتبعها من إقرار، وما يتبع الإقرار من آثار عندما تستقر هذه الحقيقة بجوانبها في نفوس الناس، وفي حياتهم، يلتزموا بمنهجه وشريعته ويستشعروا العزة أمام المتجبرين والطمغاة، حين يخرون لله راكعين ساجدين يذكرونه ولا يذكرون أحداً إلا الله وتصلح حياتهم وترقى وتكرم على هذا الأساس.

إن استقرار هذه الحقيقة الكبيرة في نفوس المسلمين وتعليق أنظارهم لله وحده، وتعليق قلوبهم برضاه، وأعمالهم بتقواه، ونظام حياتهم بإذنه وشرعه ومنهجه دون سواه... في هذه الحياة... فأما ما يجزي الله به المؤمنين المقربين بالعبودية العاملين للصالحات، في الآخرة، فهو كرم منه وفضل في حقيقة الأمر وفيض من عطاء الله⁽¹⁾.

إن الذين يستنكفون عن عبودية الله، يذلون لعبوديات من هذه الأرض لاتنتهي. يذلون لعبودية الهوى والشهوة، أو عبودية الوهم والخرافة، ويذلون لعبودية البشر من أمثالهم، ويحنون لهم الجباه... ويحكمون في حياتهم وأنظمتهم وشرائعهم وقوانينهم وقيمهم وموازينهم عبيداً مثلهم من البشر هم وهم سواء أمام الله.

(1) في ظلال القرآن (2/ 820).

المبحث الثالث

محاربة الشرك

ومن شروط التمكين المهمة: محاربة الشرك بجميع أشكاله، وأنواعه، ولذلك على الجماعة المسلمة والتي تسعى لتحكيم شرع الله تعالى أن تعرف حقيقة الشرك وخطره وأسبابه وأدلة بطلانه وأنواعه، وأن تنقي صفها منه بكافة الأساليب الشرعية، ولا يمكن للإنسان أن يحذر من الشرك وأن يحذر غيره إلا إذا عرفه وعرف خطره.

ومعرفة الشرك وما يتعلق به له فوائد عديدة:

أحدها: إن الإنسان يمكنه بمعرفة الشرك أن يحذر من الوقوع فيه.

ثانيها: إنه يمكنه أن يحذر غيره.

ثالثها: إنه يظهر له بذلك حسن الإسلام والتوحيد، وذلك أنه إذا عرف الشرك وظهر له بطلانه، عرف أن ضده وهو التوحيد أفضل الأعمال، وبضدها تتميز الأشياء، إلى غير ذلك من الفوائد.

ولهذه الأسباب وغيرها فقد اهتم الدعاة الصادقون والعلماء المخلصون والقادة الربانيون ببيان الشرك وأقسامه وأسبابه وخطره وجميع ما يتعلق به، وبينوا أن تحقيق الإيمان الصحيح لا يتم ولا يقبل من صاحبه إلا بترك الشرك والبعد عنه.

يقول الشيخ السعدي - رَحِمَهُ اللهُ: «ولا يتم توحيد العبادة حتى يخلص العبد لله في جميع إرادته وأقواله وأفعاله، وحتى يدع الشرك الأكبر المنافي للتوحيد كل المنافاة، وهو أن يصرف نوعاً من العبادة لغير الله تعالى. وتحقيق هذا التوحيد وتماهه أن يدع الشرك الأصغر وهو: كل وسيلة يتوسل بها إلى الشرك الأكبر كالحلف بغير الله، ويسير الرياء ونحو ذلك»⁽¹⁾.

(1) الفتاوى السعدية للعلامة عبدالرحمن السعدي، ص 13.

أما حقيقة الشرك بالله: «أن يعبد المخلوق كما يعبد الله أو يعظم كما يعظم الله أو يصرف له نوع من خصائص الربوبية والألوهية»⁽¹⁾.

أما أقسام الشرك فقسمه العلماء إلى نوعين: شرك في الربوبية، وشرك في الألوهية قال السعدي - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «الشرك نوعان: شرك في ربوبيته تعالى كشرك الثنوية الذين يشنون خالفاً مع الله، وشرك في ألوهيته، كشرك المشركين الذين يعبدون الله ويعبدون غيره ويشركون بينه وبين المخلوقين، ويسوونهم مع الله في خصائص ألوهيته»⁽²⁾.

لقد وردت النصوص الكثيرة في الكتاب والسنة في التحذير من الشرك، وبيان خطره، وإنه أعظم ذنب عصي الله به، وإنه لا أضل من فاعله، وإنه مخلد في النار أبداً لانصير له ولا حميم ولا شفيع يطاع، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء 48].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء 116].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَطَفَهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوَىٰ بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج 31].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر 65].

والأحاديث الواردة في ذم المشركين منها:

حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من مات يشرك بالله شيئاً دخل النار»⁽³⁾.

وحديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من لقي الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة»⁽⁴⁾.

وحديث أبي بكر⁽⁵⁾ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: كنا عند رسول الله ﷺ فقال: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟»

(1) الشيخ عبدالرحمن السعدي وجهوده في توضيح العقيدة لعبدالرزاق العباد، ص 178.

(2) الرياض النضرة للسعدي، ص 244.

(3) مسلم، كتاب الإيمان، باب من مات لا يشرك بالله شيئاً (94 / 1) رقم 92.

(4) المصدر نفسه، رقم 93.

(5) هو نفع بن الحارث بن كلدة بن عمرو أبو بكره الثقفي، تدلى إلى رسول الله ﷺ من حصن الطائف في

(بكرة) فاشتهر بأبي بكره وأسلم وأعتقه رسول الله ﷺ يومئذ، وكان من فضلاء الصحابة، وسكن

البصرة، توفي بالبصرة سنة 50 هـ. انظر: أسد الغابة (5 / 38)، والإصابة (3 / 542).

ثلاثاً: «الإشراك بالله وعقوق الوالدين وشهادة الزور» وكان رسول الله ﷺ متكئاً فجلس، فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت⁽¹⁾.

إن تفشي الشرك في المجتمعات الإسلامية سبب في ضياعها، وانحرافها عن هدى المولى ﷺ.

فمن أعظم الظلم، وأبعد الضلال، عدم إخلاص العبادة لرب العالمين، وتسوية المخلوق مع الخلاق العليم.

فالله وحده المتفرد بالعبودية، فهو مالك النفع والضرر، الذي ما من نعمة إلا منه، لا يدفع النقم إلا هو، الذي له الكمال المطلق من جميع الوجوه والغنى التام لجميع وجوه الاعتبار.

إن الشرك هو الذنب الوحيد المتميز عن بقية الذنوب بعدم المغفرة لصاحبه إذا مات ولم يتب منه، وأما بقية الذنوب فإن صاحبها إن مات ولم يتب منها فإنه تحت مشيئة الله إن شاء عذبه، وإن شاء غفر له.

إن الذنوب التي دون الشرك جعل الله لمغفرتها أسباباً كثيرة، كالحسنات الماحية والمصائب المكفرة في الدنيا والبرزخ ويوم القيامة وكدعاء المؤمنين بعضهم لبعض، وشفاعة الشافعين، ومن دون ذلك كله رحمته التي خص بها أهل الإيمان والتوحيد وهذا بخلاف الشرك فإن المشرك قد سدَّ على نفسه أبواب المغفرة، وأغلق دونه أبواب الرحمة، فلا تنفعه الطاعات دون التوحيد، ولا تفيده الشدائد والمحن شيئاً.

إن الشرك بالله تمجه وترفضه الفطر السليمة، ولقد بقي البشر بعد آدم قروناً طويلة وهم أمة واحدة على التوحيد والهدى، ثم أدخلت عليهم الشياطين الشرور المتنوعة بطرق كثيرة فكان قوم نوح قد مات منهم أناس صالحون فحزنوا عليهم فجاءهم إبليس وأمرهم أن يصوروا تماثيلهم ليتذكروا أحوالهم، فكان هذا باب الشر العظيم.

فلما مات الذين صوروهم لهذا المعنى خلف من بعدهم خلف قلَّ فيهم العلم واستفزههم الشيطان وأغواهم حتى أوقعهم في الشرك ثم بعث الله فيهم نوحاً ﷺ يعرفونه ويعرفون صدقه وأمانته، وكمال أخلاقه فقال: ﴿يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف 59]. إلا أنهم عصوه وما آمن معه إلا قليل.

(1) مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر (1/ 91) رقم 143.

إن الله تعالى خلق الناس على فطرة التوحيد ثم استطاعت الشياطين أن تميل بالناس وتنحرف بهم نحو الوثنية المظلمة، والشرك العظيم قال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [البقرة: 213].

أي إن الناس كانوا على ملة آدم ﷺ حتى عبدوا الأصنام فبعث الله إليهم نوحاً ﷺ فكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض (1).

وقال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: 30].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: 36].

وقال ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه» (2).

وهذه الأدلة الدامغة التي ذكرناها تدل على أن الناس كانوا على التوحيد وأن الشرك طارئ وحادث فيهم.

إن الجماعة المسلمة التي رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ رسولاً، تحرص على تحقيق التوحيد ومحاربة الشرك، وهي تسعى لتحكيم شرع الله، لأنها تعلم علم اليقين أن من شروط التمكين وإقامة دولة الإسلام تحقيق التوحيد، وتهذيبه، وتصفيته من الشرك الأكبر والأصغر، ومن البدع القولية والاعتقادية، والبدع الفعلية العملية، ومن المعاصي وذلك بكمال الإخلاص لله في الأقوال والأفعال والإرادات، وبالسلامة من الشرك الأكبر المناقض لأصل التوحيد، ومن الشرك الأصغر المنافي لكماله، وبالسلامة من البدع (3)، وتربي الناس على الاستعانة بالله في كافة أمور حياتهم والاستغاثة به والنذر له، والذبح له وحده، سبحانه وتعالى وأن تكون الحاكمية لله رب العالمين.

وهي تحارب شرك القبور وكذلك شرك القوانين الوضعية وتدعو إلى أفراد العبودية لله وحده في جميع شؤون الحياة الإنسانية ولسان حالها ومقالها قول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٦﴾ لَا شَرِيكَ لَمْ﴾ [الأنعام: 162 - 163].

(1) انظر: تفسير ابن كثير (1/250).

(2) مسلم، كتاب القدر، باب كل مولود يولد على الفطرة (4/ 2047) رقم 2658.

(3) انظر: الشيخ عبدالرحمن السعدي وجهوده في توضيح العقيدة، ص 191.

لذلك لا بد من محاربة الشرك ومدخله وألوانه وجميع طرقه لأن الشرك ذلة في الدنيا وعذاب أليم في الآخرة، ولأن من متطلبات الإيمان ولوازمه محاربة ضده ألا وهو الشرك.

وبعد أن ذكرت الآية الكريمة شروط الاستخلاف والتمكين والأمن أرشدت الآيات التي بعدها إلى كيفية المحافظة على هذا التمكين والأمن وإلى العدة الفعلية للأمة الإسلامية ألا وهي: الاتصال بالله، وتقويم القلب بإقامة الصلاة، والاستعلاء على الشح، وتطهير النفس والجماعة بإيتاء الزكاة. وطاعة الرسول ﷺ والرضى بحكمه، وتنفيذ شريعة الله في الصغيرة والكبيرة، وتحقيق المنهج الذي أرادته للحياة: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ في الأرض من الفساد والانحدار والخوف والقلق والضلال، وفي الآخرة من الغضب والعذاب والنكال.

إن الأمة الإسلامية عندما تسير على نهج الله تعالى وتحكم شرعه في الحياة، وترتضيه في كل أمورها... يتحقق وعد الله بالاستخلاف والتمكين والأمن. ومامن مرة خالفت عن هذا النهج والطريق القويم إلا تخلفت في ذيل القافلة، وذلت، وطردها من الهيمنة على البشرية، واستبد بها الخوف، وتخطفها الأعداء.

إن وعد الله لا يتبدل ولا يتغير إذا أقمنا الشروط، فإذا أردنا تحقيق الوعد فعلينا بتحقيق الشروط ولا أحد أوفى بعهده من الله تعالى⁽¹⁾.

آثار الشرك:

إن الشرك الذي يقع فيه الإنسان له آثاره الوبيلة في دنياه وآخرته، سواء أكان الواقع فيه فرداً أم جماعة، فمن تلك الآثار:

1 - إطفاء نور الفطرة:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾ [الأعراف: 172].

وعلى هذا فإن الشرك نقض للميثاق الذي أخذه الله على البشر وهم في عالم الذر، كما أنه انحراف عن الغاية التي خلق الله الجن والإنس من أجلها، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات 56].

إن الإنسان يستمد من حقيقة التوحيد إشراقته ونوره وسداد أمره، فإذا أشرك بالله تصبَح

(1) في ظلال القرآن (4/ 2530).

أعماله كسراب ببيعة يحسبه الظمان ماء. وتصبح حاله وأعماله معتمة مظلمة، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلَهُمْ كَسْرَابٍ بِقِيَعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَافٍ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَهُ حِسَابًا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلْمَنٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظَلَمْتُمْ بَعْضًا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدُهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهُ وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾ [النور: 39 - 40].

2 - القضاء على منازع النفس الرفيعة:

إن النفس المتعلقة بالله المتطلعة إلى رضاه لاتستغرقها شهوات الحس، ولا تنصرف بكليتها إلى متاع الأرض القريب، إنما تتطلع دائماً إلى المثل العليا والقيم الرفيعة، وإلى الترفع عن الدنس في كل صورته وأشكاله، سواء أكان فاحشة من الفواحش التي حرمها الله، أو ظلماً يقع على الناس، أو موقفاً خسيساً يقفه الإنسان من أجل شهوة رخيصة، أو مطلب من مطالب الحياة الدنيا.

ولكن حين تهتز حقيقة التوحيد في النفس ويغشيها الشرك فإن النفس تنحط فتشغلها الأرض، يشغلها المتاع الزائل فتتكاثر عليه وتنسى القيم العليا، والجهد من أجل إقامتها وتحقيقها، ويكون جهادها صراعاً خسيساً على هذا المتاع الزائل، يتقاتل من أجله الأفراد والدول والشعوب وتصبح الحياة البشرية محكومة بقانون الغاب، القوي يأكل الضعيف، والغلبة للقوة لا لصاحب الحق... وهو الأمر الذي نراه سائداً في الجاهلية المعاصرة في كل منحي من مناحي الحياة⁽¹⁾. قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا حَرَّمَ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَطَّفُهَا الطَّيْرُ أَوْ تَهْوَى بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج 31].

3 - القضاء على عزة النفس ووقوع صاحبه في العبودية الذليلة:

إن العزة الحقيقية تستمد من الإيمان بالله وحده قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون 8]. ولكن المشرك لا يعرف هذه العزة ولا يتذوقها، إنه عبد... ولكنها عبودية ذليلة، لأنها ليست عبودية لله، الكريم الرحيم، الذي يُعزُّ عباده بعزته، إنه عبد لبشر مثله يتحكم فيه فيذله، أو عبد لشهواته، شهوة المال أو شهوة الجنس أو شهوة السلطان... كلها عبودية ذليلة وإن بدت لأول وهلة متاعاً وتمكناً وتجبراً في الأرض... ثم يذهب هذا المتاع الزائل الذي تذلل له أعناق الرجال، ويأتي اليوم الذي يقفون فيه موقف الخزي الأكبر

(1) انظر: ركائز الإيمان لمحمد قطب، ص 140، 141.

أمام العزيز الجبار: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٦﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمْتَعُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الشعراء: 205 - 207].

4 - تمزيق وحدة النفس البشرية:

إن الشرك يشتم وحدة النفس البشرية ويمزقها، فيصلي الإنسان - إذا صلى - لإله، ويبيع ويشترى ويبتغي الرزق باسم إله آخر يحل له الربا ويحل له الغش والخداع بغية الربح. ويمارس شهواته باسم إله ثالث يحل له العلاقات غير المشروعة ويزين له الخبائث. وقد يتوجه إلى بشر مثله أو إلى صنم من الأصنام فيطلب منه البركة أو يطلب منه أن يقربه إلى الله زلفى... وهكذا تتشتت نفسه في محاولة استرضاء هذه الأرباب المتعددة التي كثيراً ما يكون لكل منها مطالب تخالف مطالب الأخرى وتعارضها. وفي النهاية يفقد نفسه بعد أن يفقد أمنه وطمأنينته⁽¹⁾: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: 29].

5 - ومن نتائجه إحباط العمل:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: 65].

هذه بعض الآثار التي تحدث للإنسان الذي يقع في الشرك ولاشك أن تلك الآثار تبعد المجتمع من التمكين الرباني.

(1) انظر: ركائز الإيمان لمحمد قطب ص 144، 145.

المبحث الرابع

تقوى الله عز وجل

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَأَتَّقُوا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا﴾ [الأعراف 96].

إن من شروط التمكين المهمة والتي نضيفها إلى المباحث السابقة: تقوى الله ﷻ لأن تقوى الله تعالى لها ثمرات عظيمة في الدنيا والآخرة وهذه الثمرات تظهر على الأفراد ومن ثم على الجماعة المسلمة التي تسعى لتحكيم شرع الله والتمكين لدينه. إن تقوى الله تعالى تجعل بين العبد وبين ما يخشاه من ربه ومن غضبه وسخطه وعقابه وقاية تقيه من ذلك، وهي أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عقاب الله.

أولاً: ثمرات التقوى العاجلة والاجلة:

1 - المخرج من كل ضيق، والرزق من حيث لا يحتسب العبد:

قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿١﴾ وَيَرْزُقْهُ مِن حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴿٢﴾﴾

[الطلاق 2 - 3].

2 - السهولة واليسر في كل أمر:

قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَّهُ مِّنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴿٤﴾﴾ [الطلاق 4].

قال سيد قطب رحمه الله: «واليسر في الأمر غاية ما يرجوه إنسان، وإنها لنعمة كبرى أن يجعل الله الأمور ميسرة لعبد من عباده فلا عنت ولا مشقة ولا عسر ولا ضيقة يأخذ الأمور بيسر في شعوره وتقديره، وينالها بيسر في حركته وعمله، ويرضاها بيسر في حصيلتها ونتيجتها، ويعيش من هذا، في يسر رخي ندي حتى يلقي الله»⁽¹⁾.

(1) في ظلال القرآن (6/ 3602).

3 - تيسير العلم النافع:

قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة 282].

قال العلامة محمد رشيد رضا: «أي اتقوا الله في جميع ما أمركم به ونهاكم عنه وهو يعلمكم مافيه قيام مصالحكم وحفظ أموالكم وتقوية رابطنكم، فإنكم لولا هدايته لاتعلمون ذلك، وهو سبحانه العليم بكل شيء، فإذا شرع شيئاً فإنما يشرعه عن علم محيط بأسباب درء المناسد وجلب المصالح لمن تبع شرعه، وكرر لفظ الجلالة لكمال التذكير وقوة التأثير»⁽¹⁾ لقد تكرر لفظ الجلالة في قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة 282] ثلاث مرات، فالأولى حثٌ على التقوى، والثانية وعد بإنعامه، والثالثة تعظيم شأنه سبحانه وتعالى.

4 - إطلاق نور البصيرة:

قال تعالى: ﴿إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال 29]. إن تقوى الله تعالى في الأمور كلها تعطي صاحبها نوراً يفرق به بين الحق والباطل، وبين دقائق الشبهات التي لايعلمهن كثير من الناس وعندما تسيطر تقوى الله على الصف المسلم يصبح يتحرك بفرقان رباني.

5 - محبة الله ﷻ ومحبة ملائكته والقبول في الأرض:

قال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران 76].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا أحب الله العبد قال لجبريل: قد أحببت فلاناً فأحبه. فيحبه جبريل عليه السلام، ثم ينادى في أهل السماء، إن الله قد أحب فلاناً فأحبه، فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول في الأرض»⁽²⁾.

6 - نصره الله ﷻ وتأييده وتسديده:

وهي المعية المقصودة بقول الله ﷻ: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: 194]، فهذه المعية هي معية التأيد والنصرة والتسديد وهي معية الله ﷻ لأنبيائه وأوليائه ومعيته للمتقين والصابرين وهي تقتضي التأيد والحفظ والإعانة كما قال تعالى لموسى عليه السلام:

(1) تفسير المنار (3/ 128).

(2) مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب إذا أحب الله تعالى... (4/ 2030) رقم 2637.

وهارون: ﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: 46].

أما المعية العامة مثل قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: 4].

وقوله: ﴿وَلَا يَسْتَحْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ﴾

[النساء: 108].

والمعية العامة تستوجب من العبد الحذر والخوف ومراقبة الله ﷻ.

7 - البركات من السماء والأرض:

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَأَتَّقُوا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: 96].

قال القاسمي ﷻ:

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ﴾، أي: القرى المهلكة ﴿ءَامَنُوا﴾ أي: بالله ورسولهم ﴿وَأَتَّقُوا﴾ أي: الكفر والمعاصي ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: لوسعنا عليهم الخير ويسرناه لهم من كل جانب، مكان ما أصابهم من فنون العقوبات التي بعضها من السماء وبعضها من الأرض⁽¹⁾.

ويدل على هذا المعنى قوله ﷻ: ﴿وَأَلَوْ اسْتَقَمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُم مَّاءً عَذْقًا﴾ [الجن: 16].

فانظر إلى بركات التقوى، واعلم أن مانحن فيه من قلة البركة ونقص الثمار وكثرة الآفات والأمراض إنما هو نتيجة حتمية لضعف وازع التقوى وكثرة المعاصي كما يقول تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: 41].

8 - البشرى وهي الرؤيا الصالحة وثناء الخلق ومحبتهم:

قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٧﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٨﴾ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾

[يونس: 62 - 64].

والبشرى في الحياة الدنيا ما بشر الله به المؤمنين المتقين في غير مكان من كتابه، وعن

(1) انظر: محاسن التأويل (7/ 221).

النبى ﷺ: «الرؤيا الصالحة من الله»⁽¹⁾. وعنه ﷺ: «لم يبق من النبوة إلا المبشرات». قالوا: وما المبشرات؟ قال: «الرؤيا الصالحة»⁽²⁾.

وعن أبي ذر قال: قلت لرسول الله ﷺ: الرجل يعمل العمل لله ويحبه الناس، فقال: «تلك عاجل بشرى المؤمن»⁽³⁾. وقد رأينا من الموفقين في العمل الإسلامى ثناء الناس على أعمالهم في الدنيا.

9 - الحفظ من كيد الأعداء ومكرهم:

قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا لَأَيُّضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران: 120].

قال ابن كثير - رَحِمَهُ اللهُ: «يرشدكم تعالى إلى السلامة من شر الأشرار وكيد الفجار باستعمال الصبر والتقوى، والتوكل على الله، الذي هو محيط بأعدائهم، فلا حول ولا قوة لهم إلا به، وهو الذي ماشاء كان، ومالم يشأ لم يكن»⁽⁴⁾.

إنه تعليم من الله تعالى للمسلمين في كيفية الاستعانة على أعداء الله وكيدهم.

10 - حفظ الذرية الضعاف بعناية الله تعالى ﷻ:

قال تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [النساء: 9]. وفي الآية إشارة إلى إرشاد المسلمين الذين يخشون ترك ذرية ضعافاً، إلى التقوى في سائر شؤونهم حتى تحفظ أبناءهم ويدخلوا تحت حفظ الله وعنايته، والآية تشعر بالتهديد بضياع أولادهم إن فقدوا تقوى الله، وإشارة إلى أن تقوى الأصول تحفظ الفروع، وأن الرجال الصالحين يحفظون في ذريتهم الضعاف كما في آية ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ [الكهف: 82].

فإن الغلامين حفظا ببركة أبيهما في أنفسهما ومالهما⁽⁵⁾.

(1) البخاري، كتاب الرؤيا، باب رؤيا الصالحين (8 / 88) رقم 6986.

(2) البخاري، كتاب الرؤيا، باب المبشرات (8 / 89) رقم 6990.

(3) مسلم، كتاب البر والصلة، باب إذا أثنى على الصالح فهي بشرى ولا تضره (166 / 2642).

(4) تفسير القرآن العظيم (1 / 329).

(5) انظر: محاسن التأويل للقاسمي (5 / 47).

11 - سبب لقبول الأعمال التي بها سعادة العباد في الدنيا والآخرة:

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: 27].

ولهذا لا بد للدعاة العاملين والعلماء الراسخين من استحضار هذه المعاني العظيمة، إن أعمالنا مهما كان حجمها، وتضحياتنا مهما كانت ضخامتها، لا تقبل إلا من المتقين؛ لأنهم هم الذين يستشعرون أن كل خير هو من الله وحده.

12 - سبب النجاة من عذاب الدنيا:

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا تَمُودُ فَهَدَيْتَهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٧﴾ وَبَحَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَنْقُونَ ﴿٨﴾﴾

[فصلت: 17 - 18].

إن الله تعالى سلم أهل الإيمان والتقوى من بين أظهر الكافرين دون أن يمسه سوء أو أن ينالهم من ذلك ضرر، بسبب إيمانهم وتقواهم لله تعالى.

13 - تكفير السيئات وهو سبب النجاة من النار، وعظم الأجر وهو سبب الفوز بدرجة الجنة:

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: 5].

قال ابن كثير - رَحِمَهُ اللهُ: أي: «يذهب عنهم المحذور، ويجزل لهم الثواب على العمل اليسير»⁽¹⁾.

14 - ميراث الجنة، فهم أحق الناس بها وأهلها، بل ما أعد الله الجنة إلا لأصحاب هذه الرتبة العلية والجوهرة البهية. قال تعالى: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم: 63] فهم الورثة الشرعيون لجنة الله ﷻ.

15 - وهم لا يذهبون إلى الجنة سيراً على أقدامهم بل يحشرون إليها ركباناً مع أن الله ﷻ يقرب إليهم الجنة تحية لهم ودفعاً لمشقتهم كما قال تعالى: ﴿وَأَرْزَقْتِ الْجَنَّةَ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ [ق: 31].

قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَقَدًّا﴾ [مريم: 85].

(1) تفسير ابن كثير (4/ 382).

16 - وهي تجمع بين المتحابين من أهلها حين تنقلب كل صداقة ومحبة إلى عداوة ومشقة:

قال تعالى: ﴿الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: 67].

ومن بركة التقوى أن الله ﷻ ينزع ما قد يعلق بقلوبهم من الضغائن والغل فتزداد مودتهم وتتم محبتهم وصحبتهم قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ آذْخُلُوهَا مِنْ أَمْثَلِ عَمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحجر: 45 - 47].

إن هذه الثمار العظيمة عندما تمس شغاف قلوب العاملين في الدعوة الإسلامية تصفي على العمل فيضاً ربانياً موصولاً بالله متصل حلقة الدنيا بالآخرة، كما أن الحرص على تقوى الله تعالى يكسب الصف الإسلامي صفات رفيعة وأخلاقاً حميدة، ومكارم نفيسة تجعله أهلاً لتمكين شرع الله على يديه، ومن أهم هذه الصفات التي تجعل الصف المسلم متماسكاً في حركته الدؤوبة نحو تحكيم شرع الله ما يأتي:

ثانياً: صفات المتقين:

1 - الصدق، فهم أصدق الناس إيماناً، وأصدقهم أقوالاً وأعمالاً وهم الذين صدقوا المرسلين قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: 177].

قال القاسمي - رَحِمَهُ اللهُ -: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ في إيمانهم لأنهم حققوا الإيمان القلبي بالأقوال والأفعال، فلم تغيرهم الأحوال ولم تزلزلهم الأحوال، وفيه إشعار بأنه من لم يفعل أفعالهم لم يصدق في دعوى الإيمان: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ عن الكفر وسائر الرذائل، وتكرير الإشارة لزيادة تنويه بشأنهم وتوسيط الضمير للإشارة إلى انحصار التقوى فيهم⁽¹⁾ وقد رغب النبي ﷺ في هذه الخصلة النبيلة والرتبة الجليلة فقال: «وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً»⁽²⁾.

2 - ومن صفاتهم، أنهم يعظمون شعائر الله ﷻ: قال الله تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: 32].

(1) انظر: تفسير القاسمي (3/ 54).

(2) البخاري، كتاب الأدب، باب قول الله تعالى: ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ (7/ 124).

إن المتقين يعظمون طاعة الله وأمره فيدفعهم ذلك إلى طاعته، ويعظمون كذلك ما نهى الله عنه فيدفعهم ذلك عن معصيته.

3 - ويتحرون العدل ويحكمون به، ولا يحملنهم بغض أحد على تركه قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَيْكُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: 8].

وفى الآية تعليم وإرشاد إلى وجوب العدل مع الكفار، الذين هم أعداء الله، فما الظن بوجوده مع المؤمنين الذين هم أولياؤه وأحباؤه.

4 - يتبعون سبيل الصادقين من الأنبياء والمرسلين وصحابة سيد الأولين والآخرين ﷺ. قال تعالى: ﴿يَتَّخِذُهَا الذِّبْنَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: 119].

فلا شك أن من صفات المتقين أنهم ينتهجون منهج الصحابة ﷺ، لأنهم أولى الناس بهذه الصفة التي أمرنا الله أن نكون مع أهلها، فقد شهد الله لهم بالصدق، وشهد لهم رسوله ﷺ، فلا يجوز لأحد أن يلزمهم بشيء، أو يتهمهم بما برأهم الله ﷻ منه ورسوله ﷺ، فالصحابة كلهم عدول، وظهرت فيهم من علامات الصدق والإيمان واليقين ما يجعل العاقل يقطع بتعديلهم، فمن تقوى الله ﷻ موالاتهم، ومحبتهم، ونصرتهم، والاحتجاج بإجماعهم، وفهم الكتاب والسنة على منهجهم وطريقتهم، وبغض من يبغضهم وبغير الحق يذكرهم⁽¹⁾.

5 - يدعون مالا بأس به حذراً مما به بأس، ويتقون الشبهات. إن المتقين يتورعون عن الشبهات وعما يرتابون فيه مما ليس حلالاً بيناً، وذلك أدعى أن يتورعوا عن الحرام البين، ومن اجترأ على الشبهة اجترأ كذلك على الحرام.

ولهذا قال رسول الله ﷺ: «إن الحلال بين وإن الحرام بين وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام»⁽²⁾.

ولابد من التنبيه لأمر مهم وهو: أن التدقيق في التوقف عن الشبهات إنما يصلح لمن استقامت أحواله كلها وتشابهت أعماله في التقوى والورع، فأما من يقع في انتهاك المحرمات

(1) انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (8/ 289).

(2) البخاري، كتاب الإيمان، باب من استبرأ لدينه (1/ 22) رقم 22.

الظاهرة ثم يريد أن يتورع عن شيء من دقائق الشبهات فإنه لا يحتمل ذلك بل ينكر عليه، كما قال ابن عمر لمن سأله عن دم البعوض من أهل العراق: يسألونني عن دم البعوض وقد قتلوا الحسين، وسمعت رسول الله ﷺ يقول: «هما ریحاناي من الدنيا»⁽¹⁾.

6 - إنهم يعفون ويصفحون: قال تعالى: ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [البقرة: 237].

وقال تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [الشورى: 40].

فأخبر ﷺ أن من اتصف بهذه الصفة فأجره في ذلك على الله ﷻ كما رغبهم الله ﷻ في مغفرته إذا فعلوا ذلك فقال ﷺ: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: 22].

وقال تعالى في وصف المتقين: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: 134].

فالإحسان وصف من أوصاف المتقين، ولم يعطفه على ما سبقه من الصفات بل صاغه بهذه الصيغة: تمييزاً له بكونه محبوباً عند الله تعالى⁽²⁾.

7 - ومن صفاتهم أنهم غير معصومين من الخطايا إلا من عصمه الله ﷻ من الأنبياء غير أنهم لا يقترفون الكبائر، ولا يصرون على الصغائر، بل كلما وقعوا في صغيرة رجعوا إلى الله بالتوبة والاستغفار والعمل الصالح عملاً بقول الله تعالى: ﴿إِنَّ أَلَدِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: 201].

شأن المؤمنین المتقين إذا مسهم طائف من الشيطان لحملهم على محاكاة الجاهلين والخوض معهم وعلى غير ذلك من المعاصي والفساد تذكروا فأبصروا فحذروا وسلموا، وإن زلوا تابوا وأنابوا⁽³⁾.

إن هذه الصفات عندما تتغلغل في نفوس الدعاة والعلماء وأبناء المسلمين تكون الأمة المسلمة جديرة بنصر الله وتوفيقه، وبهذا نكون قد فصلنا أهم شروط التمكين المتمثلة في الإيمان بالله والعمل الصالح، والعبادة، ومحاربة الشرك وتقوى الله ﷻ.

(1) البخاري، فضائل الصحابة، باب مناقب الحسن والحسين (4/ 261).

(2) انظر: تفسير المنار (4/ 134، 135).

(3) المصدر نفسه، (9/ 550).